مكة في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري كما وصفها المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم

د. عبدالعزيز بن راشد السنيدي
قسم التاريخ - كلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية - جامعة القصيم

خيّم الغموض ردحاً من الزمن على تاريخ مكة رغم مكانتها السامقة في النفوس، بعد تراجع واضح من المؤرخين - سواء كانوا من أبنائها أو غيرهم - عن الكتابة فيه؛ فلا نرى من يُعنى بتتبع مناشط الحياة العامة في مكة ويُدوّن تاريخها بدقة وتوسع بعد وفاة مؤرخيها البارزين، مثل: أبي الوليد الأزرقي (ت حوالي سنة ٢٥٠هـ/ ٨٦٣م)، وأبي إسحاق الفاكهي (ت بعد سنة ٢٧٢هـ/ ٨٨٥م)، حتى قيّض الله تعالى لها تقي الدين الفاسي (ت ٨٣٢هـ/ ١٤٢٩م)، ونجم الدين بن فهد (ت ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م)، وابنه عز الدين (ت ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م)، وحفيده جار الله (ت ٩٥٤هـ/ ١٥٤٧م)، وغيرهم ممن شمروا عن ساعد الجد محاولين أن يتداركوا ما أهمل من التاريخ المكي، ويلموا شعثه بما صنفوه من كتب، حاولت - رغم عدم توافر المادة العلمية الكافية للفترة التي أعقبت الأزرقي والفاكهي - أن تغطي بمضامينها المختلفة جوانب هذا التاريخ المتعددة.

وجاءت بعض كتب الرحلات لتتيح - بما جاء فيها من مادة علمية متنوعة - رافداً يسَّر للباحثين الوصول لبعض الحقائق التاريخية والمعلومات الحضارية المهمة، وكانت خير معين في رفع الستار،

وكشف الغموض عن أجزاء مبهمة أو غير واضحة من تاريخ مكة في فترته الغامضة.

ويأتي كتاب "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" الذي صنفه محمد بن أحمد المقدسي - بعد رحلة أمضاها سائحاً في الأمصار الإسلامية إبان النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، ومترددا خلال ذلك على مكة حاجاً ومجاوراً - من أبرز الكتب التي صنفت في هذا المجال بعد أن حرص المقدسي على أن يُخرج هذا الكتاب وفق خطة مرسومة تخضع لمعايير منهجية واضحة وصارمة. ولا غرو فقد أرضى المقدسي طموحه وتطلعاته حتى أصبح مصنفه، بمنهجه المتميز، ومادته العلمية الثرة والمتنوعة التي بزّ بها سابقيه ومعاصريه من الجغرافيين والرحالة، مرجعاً للكثير من الباحثين، ومثار إعجاب عدد من الكتاب المحدثين، سواء كانوا من العرب أو المستشرقين، ممن أفاضوا في دراسة منهجه، والإفصاح عن مكانته وقيمته العلمية(١).

بيد أن هذا التميز الذي حظي به كتاب أحسن التقاسيم للمقدسي قد دفعنا لإعمال النظر في محتوياته، والغوص في مظانه، لمعرفة ما حفل به من معلومات تاريخية وحضارية تسلط الضوء على الحياة العامة في مكة إبان القرن الرابع الهجري، وتسد - في الوقت عينه - جزءًا من ذلك النقص الواضح الذي أشرنا إليه في تاريخها. ولعلنا لا نغالي إذا قلنا: إن ما ألفيناه - بعد البحث والتقصي - من معلومات متنوعة عن مكة في هذا الكتاب قد أفسحت المجال للوصول إلى معرفة الكثير من الجوانب التاريخية والحضارية؛ مما نخال أنه سيغطي - بإذن الله - جانباً من النقص الذي لازم التاريخ المكي آنذاك، لا سيما وأن المقدسي قد بسط القول في موضوعات حضارية صرفة ونادرة عن كل إقليم تحدث عنه، ومن ذلك مكة، في وقت أغفلت كتب التاريخ - في الغالب - هذه المعلومات، وتناولت جزئيات عامة منها

---

(١) هذا ما سوف نتحدث عنه بتوسع في المحور الأول من هذه الدراسة.

بعض المصادر المعنية بالنظم والحضارة. فضلاً عن ذلك فإن معظم ما جاء به المقدسي من معلومات قد بُني على المعاينة المباشرة، واتكأ عليها، فجمع بذلك بين الدقة والمعاصرة.

ومما يحسب لهذا الكتاب أيضاً أن مؤلفه جاء إلى مكة في فترة هدوء نسبي أتى بعد مرحلة انتقالية خضعت المنطقة في نهايتها لسيطرة الدولة العبيدية (الفاطمية) في مصر بعد نزاع حاد مع العباسيين. كما شهدت هذه الحقبة التاريخية أيضاً تحركاً ملموساً للنشاط التجاري في البحر الأحمر وموانئه، عقب زيادة الانفتاح العبيدي على العالم الخارجي. ولهذا وذاك فلا مشاحة أن المقدسي قد أمدنا بمعلومات غاية في الأهمية عن هذه التغيرات السياسية والحضارية التي تخللت النصف الثاني من القرن الرابع الهجري.

لقد أملت علينا الاعتبارات السابقة برمتها تسليط الضوء على ما جاء من معلومات مختلفة عن مكة في كتاب أحسن التقاسيم للمقدسي(٢)، وجمعها في قالب واحد، ثم صياغتها بعد إخضاعها للتمحيص والتحقيق والتحليل والتفسير العلمي المتجرد، وكشف المبهم، وتفسير الغامض، كل ذلك بعد التزود بالأدوات المختلفة التي تساعد على التعايش مع الأحداث المحيطة، وإدراك المتغيرات الزمانية والمكانية المختلفة.

ووفق ما أملته المادة العلمية المتاحة، واقتضته طبيعة الدراسة، فقد تم تناول الموضوع - والذي جاء تحت عنوان، "مكة في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري كما وصفها المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" عبر محورين، جاء المحور الأول منهما - بعد هذه المقدمة - ليلقي الضوء على شخصية المقدسي وكتابه

---

(٢) سوف نستند في هذا البحث على كتاب المقدسي أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، الذي حققه الدكتور محمد مخزوم، ونشرته دار إحياء التراث العربي ببيروت، عام ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م.

أحسن التقاسيم؛ فشمل بذلك حياة المقدسي ومكانته ومنهجه في تأليف كتابه ومصادره، ثم أهمية هذا الكتاب ومكانته. أما المحور الثاني - وهو مرتكز الدراسة - فكان عن مكة كما وصفها المقدسي، وفيه أميط اللثام عن الجوانب المختلفة التي وصفها المقدسي في مكة، فضم هذا المحور: الموقع والمناخ، ثم مكانة مكة وأهميتها، ثم تخطيطها وعمارتها، وتبع ذلك الحديث عن وصف المقدسي للكعبة والحجر الأسود والحِجْر (حِجْر إسماعيل) والمطاف وعمارة المسجد الحرام وذكر أبوابه، ثم وصفه لقبة زمزم وقبة الشراب ومقام إبراهيم والمسعى. وعقب ذلك تناولنا ما ذكر المقدسي عن المصادر المائية المختلفة في مكة، ثم ما أتى به من معلومات عن النشاط التجاري، سواء عن الأسواق أو البضائع والسلع أو الاستثمار العقاري أو المكاييل والموازين أو العملات المتداولة أو المكوس والضرائب. وجاء بعد ذلك الحديث عمَّا أتحفنا به من معلومات عن الحالة الاجتماعية بجوانبها المختلفة في مكة. ثم ما ذكر عن الجوانب الفكرية والعلمية فيها. وأوردنا بعدها معلوماته عن المشاعر المقدسة؛ وهي منى والمزدلفة وعرفة، ثم أتينا بأقواله حول حدود الحرم المكي، وأجملنا بعد ذلك - وتحت عنوان معلومات أخرى - جوانب متفرقة لا يجمعها رابط واحد، أشار إليها المقدسي في حديثه عن مكة. ثم جاءت بعد ذلك الخاتمة، وفيها حاولنا تتبع أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة.

وأخيراً، أسأل المولى - جل شأنه - أن يكون التوفيق حليفي فيما ذهبت إليه، كما آمل أن أكون قد قدمت بهذا العمل جديداً يخدم تاريخنا المجيد، والحمد لله أولاً وآخراً.

أولاً: المقدسي وكتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم

١ - حياته ومكانته(٣)

هو شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء المقدسي، وعُرف بالبشاري أيضاً(٤)، كما أطلقت عليه ألقاب أخرى كثيرة(٥). ولد في مدينة بيت المقدس سنة ٣٣٥هـ/ ٩٤٦م(٦)، وقيل

---

(٣) سوف أكتفي في هذا الجانب بتناول بعض المعلومات المختصرة عن حياة المقدسي وكتابه أحسن التقاسيم، حيث كفيت مؤنة ذلك من قبل عدد من الباحثين الذين تناولوا المقدسي وكتابه بحديث مبسوط؛ سواء كان ذلك بدراسات مفردة، أو ضمن كتابات شاملة تختص بالجغرافيين والرحالة المسلمين وتراثهم. ولمزيد من المعلومات عن هذا الموضوع يمكن الرجوع - على سبيل المثال - للكتب والأبحاث الآتية؛ عدي يوسف مخلص، المقدسي البشاري: حياته - منهجه. ط١، النجف: مطبعة النعمان ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م؛ إبراهيم خوري، نوابغ الجغرافية العربية في القرون الوسطى "المقدسي البشاري، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم". بيروت: دار الشروق، (د. ت)؛ فلاح شاكر أسود، المقدسي (ضمن سلسلة نوابغ الفكر العربي) ط١، بغداد: دار الشؤون الثقافية ١٩٨٨م؛ غازي طليمات، من أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم لمحمد بن أحمد المقدسي، دمشق: وزارة الثقافة والإرشاد القومي ١٩٨٠م؛ عبدالفتاح فتحي عبدالفتاح، المقدسي مؤرخاً لبلدان العرب من خلال كتابه أحسن التقاسيم، مجلة المؤرخ العربي (القاهرة)، م١، ع٧، ١٩٩٩م، ص٢٠٣-٢٧٤؛ ناصر عبدالرزاق الموافي، الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، ط١، القاهرة: دار النشر للجامعات المصرية - دار الوفاء ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، ص١٧٢-٢٠٦.

(٤) ياقوت الحموي، معجم البلدان، بيروت: دار صادر ودار بيروت ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ج٤، ص٤٦٤؛ خير الدين الزركلي، الأعلام، ط٦، بيروت: دار العلم للملايين ١٩٨٤م، ج٦، ص٣١٢؛ عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، لبنان: مكتبة المثنى، ودار إحياء التراث العربي ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م، ج٨، ص٢٣٨. وقال عبدالفتاح فتحي عبدالفتاح: "لم أقف على أصل تلك النسبة فيما تيسر لي من معاجم اللغة، ومصادر الأنساب". (المرجع السابق، ص٢٤٥).

(٥) ذكر أنه سمي خلال تجوله ورحلاته بأسماء عدة، فقال: "ولقد سميت بستة وثلاثين اسما دعيت وخوطبت بها، مثل مقدسي وفلسطيني ومصري ومغربي وخراساني وسلمي ومقرئ وفقيه وصوفي وولي وعابد وزاهد وسياح ووراق ومجلد وتاجر ومذكر وإمام ومؤذن وخطيب وغريب وعراقي وبغدادي وشامي وحنيفي ومتأدب وكري ومتفقه ومتعلم وفرائضي وأستاذ ودانشومند وشيخ ونشاسته وراكب ورسول، وذلك لاختلاف البلدان التي حللتها وكثرة المواضع التي دخلتها". (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. تحقيق، محمد مخزوم. بيروت: دار إحياء التراث العربي ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م، ص٤٩-٥٠).

(٦) عدي مخلص، المقدسي البشاري، ص٢٣؛ ناصر الموافي، الرحلة في الأدب العربي، ص١٧٢.

سنة ٣٣٦هـ/ ٩٤٧م(٧). أما وفاته فقد اختلف فيها على أقوال عدة؛ فقيل: إنها كانت سنة ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م(٨)، وقيل: في حوالي سنة ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م(٩)، وقيل: خلال سنة ٣٩٠هـ/ ٩٩٩م، أو بعدها بقليل(١٠).

وعاش المقدسي صباه في كنف أسرة تميزت بالثراء المادي وحب العلم، وعُرف خلال حياته بالتقوى والورع والزهد(١١). وفي شبابه انتقل إلى مدينة بغداد، ودرس على بعض العلماء فيها(١٢). ورغم أنه اطلع على الكثير من العلوم ودرسها، إلا أنه - وبعد طول نظر - آثر التعمق في الفقه على المذهب الحنفي(١٣). كما مارس المقدسي مهنًا عدة، كان من أبرزها التجارة التي حذق فيها كثيراً(١٤).

وقد حج المقدسي سنة ٣٥٦هـ/ ٩٦٦م بعد أن بلغ سن العشرين، كما حج مرة أخرى سنة ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م(١٥)، إضافة إلى ذلك فقد جاور في مكة(١٦)، واستفاد من بعض العلماء فيها(١٧). وقد أمضى حوالي عشرين سنة من عمره يتجول في البلدان الإسلامية، قبل أن يؤلف كتابه سنة ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م(١٨).

---

(٧) خير الدين الزركلي، الأعلام، ج٦، ص٣١٢؛ عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، ج٨، ص٢٣٨.

(٨) عمر رضا كحالة، المرجع السابق، ج٨، ص٢٣٨.

(٩) الزركلي، المرجع السابق، ص٣١٢؛ كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة، أحمد عثمان هاشم، ط٢، بيروت: دار الغرب الإسلامي ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م، ص٢٢٩؛ عدي مخلص، المرجع السابق، ص٢٥؛ إبراهيم خوري، نوابغ الجغرافية العربية، ص١٧.

(١٠) غازي طليمات، المرجع السابق، ص٣٦.

(١١) عبدالفتاح فتحي عبدالفتاح، المقدسي مؤرخاً لبلدان العرب، ص٢٠٥، ٢٠٨.

(١٢) عدي مخلص، المقدسي البشاري، ص٢٤.

(١٣) ناصر عبدالرزاق الموافي، الرحلة عند العرب، ص١٧٣.

(١٤) عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، ج٨، ص٢٣٩.

(١٥) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٩٥.

(١٦) المصدر نفسه، ص٥٠.

(١٧) المصدر نفسه، ص٧٧، ٧٩.

(١٨) المصدر نفسه، ص٢٣.

وقد أمدنا أبو عبدالله المقدسي بمعلومات عن نفسه، غطت إغفال معظم المصادر الحديث عنه، ويسرت لنا - في الوقت نفسه - الوقوف على جوانب من حياته الشخصية وأطوارها المختلفة، فضلاً عن مكانتيه العلمية والاجتماعية؛ فأفاد من خلال ذلك بأنه تولى - خلال تجواله في البلدان الإسلامية - العديد من المناصب الإدارية والدينية، ومارس مختلف المهن، كما عانى من الكثير من الشدائد والمحن(١٩).

---

(١٩) يقول المقدسي موضحاً ما عاناه خلال أسفاره: "ثم أنه لم يبق شيء مما يلحق المسافرين إلا وقد أخذت منه نصيبا غير الكدية وركوب الكبيرة، فقد تفقهت، وتأدبت، وتزهدت، وتعبدت، وفقهت، وأدبت، وخطبت على المنابر، وأذنت على المنائر، وأممت في المساجد، وذكرت في الجوامع، واختلفت إلى المدارس، ودعوت في المحافل، وتكلمت في المجالس، وأكلت مع الصوفية الهرائس، ومع الخانقائيين الثرائد، ومع النواتي العصائب، وطردت في الليالي من المساجد، وسحت في البراري، وتهت في الصحاري، وصدقت في الورع زمانا، وأكلت الحرام عيانا، وصحبت عباد جبل لبنان، وخالطت حينا السلطان، وملكت العبيد، وحملت على رأسي بالزبيل، وأشرفت مرارا على الغرق، وقطع على قوافلنا الطرق، وخدمت القضاة والكبراء، وخاطبت السلاطين والوزراء، وصاحبت في الطرق الفساق، وبعت البضائع في الأسواق، وسجنت في الحبوس، وأخذت على أني جاسوس، وعاينت حرب الروم في الشواني، وضرب النواقيس في الليالي، وجلدت المصاحف بالكرى، واشتريت الماء بالغلا، وركبت الكنائس والخيول، ومشيت في السمائم والثلوج، ونزلت في عرصة الملوك بين الأجلة، وسكنت بين الجهال في محلة الحاكة، وكم نلت العز والرفعة، ودبر في قتلي غير مرة، وحججت، وجاورت، وغزوت، ورابطت، وشربت بمكة من السقاية السويق، وأكلت الخبز والجلبان بالسيق ومن ضيافة إبراهيم الخليل وجميز عسقلان السبيل، وكسيت خلع الملوك، وأمروا لي بالصلات، وعريت، وافتقرت مرات، وكاتبني السادات، ووبخني الأشراف، وعرضت علي الأوقاف، وخضعت للأخلاف، ورميت بالبدع، واتهمت بالطمع، وأقامني الأمراء والقضاة أمينا، ودخلت في الوصايا، وجعلت وكيلا، وامتحنت الطرارين، ورأيت دول العيارين، واتبعني الأرذلون، وعاندني الحاسدون، وسعي بي إلى السلاطين، ودخلت حمامات طبرية والقلاع الفارسية، ورأيت يوم الفوارة وعيد بربارة وبئر بضاعة وقصر يعقوب وضياعه ومثل هذا كثير. (أحسن التقاسيم، ص٥٠-٥١). وقال غازي طليمات عن شخصيته: "إنها متعددة الجوانب، مشحوذة الملكات، صقلتها الأسفار، وراضتها التجارب، لكنها ظلّت أبيّة قوية، لا تخشع ولا تتواضع". (من أحسن التقاسيم، ص٣٨).

٢ - كتاب أحسن التقاسيم: منهجه، ومصادره، ومكانته، وأهميته

كان الاطلاع على كتب الجغرافية، والتعمق في دراستها مما استهوى المقدسي خلال طلبه للعلم، فأعمل النظر في مؤلفات السابقين في هذا المجال، وأحس بأن هناك نقصاً قد لازم ما طرقوه من موضوعات، وخللاً في ما قدموا من مادة علمية في كتبهم، ولا سيما وأن بعضهم لم يعتمد على المشاهدة الفعلية فيما دوّنه. وبعد طول تأمل في هذه المصنفات قرر المقدسي تأليف كتاب شامل يصف فيه البلدان الإسلامية، ويعتمد بالدرجة الأولى على السماع المباشر والمعاينة، ليسد ما رآه من نقص، ويقيم ما وجده من خلل في المصنفات السابقة. ولهذا الهدف قضى المقدسي من عمره عشرين سنة تقريباً، تنقل فيها بين الأقاليم الإسلامية، واحتك خلالها بأجناس متنوعة، وفئات مختلفة، وطبقات متفاوتة، كما استعان بذوي العلم والخبرة، فضلاً عن النظر في كثير من الخزائن ودور الكتب في الأمصار التي زارها(٢٠). كل ذلك لكي يصل إلى معلومات شاملة ودقيقة، تحقق مبتغاه وهدفه، وتروي نهم من تطلعوا للوصول لحقائق ومعلومات وافية عن الأقاليم الإسلامية؛ سواء منهم من شجعوه على إصدار ما جمع من معلومات(٢١) أو غيرهم ممن أولعوا بطلب العلم، في عصر بلغ فيه التقدم العلمي ذروته، وهو القرن الرابع الهجري. وكان نتيجة ذلك أن أتحفنا المقدسي بكتابه الذي أطلق عليه اسم "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم"، الذي لم يخرجه للناس إلا في سنة ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م(٢٢)، بعد أن بلغ الأربعين من العمر، وأقرّ مادته العلمية جمع من الأئمة والعلماء بعد أن استشارهم في إصداره(٢٣).

---

(٢٠) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٦-١٧.

(٢١) المصدر نفسه، ص٢٣.

(٢٢) ويرى كراتشكوفسكي أن المقدسي قدم نسخة الكتاب الأولى في سنة ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م إلى آل سامان حكام المشرق آنذاك، كما قدم منه نسخة ثانية إلى الفاطميين في مصر سنة ٣٧٨هـ. (تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص٢٢٨-٢٢٩).

(٢٣) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٢٣.

وقد اقتصر المقدسي في أحسن التقاسيم على الحديث عن الأقاليم الإسلامية دون غيرها(٢٤). كما حرص على أن يغطي بكتابه معظم الجوانب الجغرافية والحضارية المتعلقة بهذه البلدان، فقال موضحاً منهجه وما تطرق إليه في هذا الكتاب(٢٥): "فرأيت أن أقصد علماً قد أغفلوه، وأنفرد بفن لم يذكروه إلا على الإخلال، وهو ذكر الأقاليم الإسلامية وما فيها من المفاوز والأبحار والبحيرات والأنهار، ووصف أمصارها المشهورة، ومدنها المذكورة، ومنازلها المسلوكة، وطرقها المستعملة، وعناصر العقاقير والآلات ومعادن الحمل والتجارات، واختلاف أهل البلدان في كلامهم وأصواتهم وألسنتهم وألوانهم ومذاهبهم ومكاييلهم وأوزانهم ونقودهم وصروفهم وصفة طعامهم وشرابهم وثمارهم ومياههم ومعرفة مفاخرهم وعيوبهم، وما يحمل من عندهم وإليهم، وذكر مواضع الأخطار في المفازات، وعدد المنازل في المسافات، وذكر السباخ والصلاب والرمال والتلال والسهول والجبال والحواوير والسماق والسمين منها والرقاق ومعادن السعة والخصب ومواضع الضيق والجدب، وذكر المشاهد والمراصد والخصائص والرسوم والممالك والحدود والمصارد والجروم والمخاليق والزموم والطساسيج والتخوم والصنائع والعلوم والمباخس والمشاجر والمناسك والمشاعر".

وقسم المقدسي كتابه قسمين، تضمن القسم الأول منه مقدمة سلط من خلالها الضوء على سبب تأليف كتابه وأهدافه وموضوعه وفوائده وأهميته والجهد الذي بذل فيه. كما تحدث في القسم نفسه وتحت عنوان "مقدمات وفصول لا بد منها" عن أسس منهجه ومصادر كتابه، ومآخذه على السابقين في هذا المجال. ثم أعقب ذلك بحديث

---

(٢٤) المصدر نفسه، ص٢٣.

(٢٥) المصدر نفسه، ص١٥-١٦. ولكي لا يطول بنا الحديث فلن أتطرق لتعريف بعض الكلمات التي أوردها المقدسي هنا، ومن أراد معرفتها فليرجع للكتاب نفسه، حيث اجتهد المحقق في تعريف كثير من الألفاظ الغامضة.

شامل عن البحار والأنهار في البلدان الإسلامية. كما أشار ضمن هذه المقدمات إلى اتفاقات الأسامي وتباين مواقعها، وإلى المواضع المختلف فيها، وتحدث أيضاً عن خصائص الأقاليم الإسلامية، والمذاهب والديانات المنتشرة فيها. ثم شرح معاناته والمشاق التي واجهها في سبيل جمع مادة كتابه العلمية. ثم عقد باباً خصصه للفقهاء، استعرض فيه باختصار الأقاليم الإسلامية التي سيتحدث عنها في كتابه، وتقسيماتها، وما يتبعها من كور وأمصار وغيرها.

أما القسم الثاني من الكتاب فقد تكلم فيه المقدسي عن الأقاليم الإسلامية، بعد أن قسمه إلى جزئين، خصص الجزء الأول منهما للحديث عن ستة أقاليم عربية، ابتدأها بإقليم جزيرة العرب، والآخر عن ثمانية من الأقاليم الأعجمية(٢٦).

وقد قسم المقدسي الحديث عن كل إقليم إلى ثلاثة أقسام متباينة في أحجامها، ومقدار المادة العلمية فيها، وجاءت محتويات هذه الأقسام الثلاثة وفق ما ذكر عدي مخلص على النحو الآتي(٢٧): "القسم الأول يتناول الجغرافية الإقليمية، فيتحدث عن أقسام الإقليم ومدنه. وفي الثاني يتناول الجغرافية الطبيعية والبشرية والاقتصادية، فيبحث في المناخ والزراعة والطوائف السائدة واللغة والتجارة والأوزان والنقود والعادات والمياه والمعادن والأماكن والأخلاق والتبعية السياسية للقطر وخراجه. في حين يتناول القسم الثالث ذكر المسافات وطرق المواصلات".

---

(٢٦) ذكر المقدسي الأقاليم الإسلامية، فقال: "فالأقاليم أربعة عشر، ستة عربية؛ جزيرة العرب، ثم العراق، ثم أقور، ثم الشام، ثم مصر، ثم المغرب، وثمانية أعجمية؛ المشرق، ثم الديلم، ثم الرحاب، ثم الجبال ثم خوزستان، ثم فارس، ثم كرمان، ثم السند. ولابد لكل إقليم من كورة، ثم لكل كورة من قصبة، ثم لكل قصبة من مدن، إلا الجزيرة والمشرق والمغرب فإن لكل واحد مصرين، والمصر قصبة كورته، وليس كل قصبة مصراً. (أحسن التقاسيم، ص٥٤).

(٢٧) المقدسي البشاري، ص٦٨.

وكان المقدسي قد ضمّن كتابه خريطة ملونة بيّن فيها حدود الأقاليم وخططها، ورسم فيها - وبألوان مختلفة - البحار والأنهار والطرق والرمال والجبال(٢٨). ولكن هذه الخريطة المهمة لم تصل إلينا(٢٩).

أما مصادر المقدسي التي اعتمد عليها في جمع المادة العلمية لهذا الكتاب، فقال شارحاً لها(٣٠): "فانتظم كتابنا هذا ثلاثة أقسام أحدها ما عايناه، والثاني ما سمعناه من الثقات، والثالث ما وجدناه في الكتب المصنفة في هذا الباب وفي غيره". كما قال أيضاً(٣١): "وما بقيت خزانة ملك إلا وقد لزمتها، ولا تصانيف فرقة إلا وقد تصفحتها، ولا مذاهب قوم إلا وقد عرفتها، ولا أهل زهد إلا وقد خالطتهم، ولا مذكرو بلد إلا وقد شهدتهم، حتى استقام لي ما ابتغيته في هذا الباب".

يقول إبراهيم خوري مبيّناً ما بذله المقدسي في سبيل تحصيل مادة أحسن التقاسيم العلمية(٣٢): "لا شك أن البشاري بذل جهوداً حثيثة في سبيل الوصول إلى الوثائق المكتوبة أو الحصول عليها. ولا ريب أنه أرهق مادياً ومعنوياً وجسدياً في تجواله في أقاليم مملكة الإسلام؛ ليراها عياناً، وفي سعيه للاجتماع بـ"الثقات من الرجال"، وسؤال ذوي العقول من الناس؛ ليسمع منهم الأخبار الصحيحة، ودام نشاطه على هذا المنوال تسعة عشر عاماً استطاع في نهايتها أن ينجز كتابه "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم".

---

(٢٨) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٢٣.

(٢٩) آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري. نقله إلى العربية، محمد عبدالهادي أبو ريدة. ط١، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧م، ص٦.

(٣٠) أحسن التقاسيم، ص٤٩.

(٣١) المصدر نفسه، ص٤٩.

(٣٢) المقدسي البشاري، ص٢٦-٢٧.

وتتجلى أهمية كتاب المقدسي في تسليط الضوء على الكثير من المواضيع والجوانب التي لم تحظ إلا باهتمام محدود ممن سبقه في هذا المضمار، خصوصاً ما يتعلق بجوانب الحضارة المختلفة، ومظاهر الحياة في البلدان، التي وصفها لنا كما وجدها عند زيارته لها. ولذا فقد أدرك الكثير من الكتاب أهمية كتاب المقدسي وقيمته العلمية، فقال إبراهيم خوري مستعرضاً آراء بعض المستشرقين في كتاب أحسن التقاسيم ومبدياً رأيه فيه(٣٣): "وقد كشف سبرنجر أول مخطوطة لأحسن التقاسيم، فاعتبر المقدسي أكبر جغرافيّ عرفته البشرية قاطبة. وعدّ كرامرز كتابه أفضل مصنّفات الأدب الجغرافي العربي. وذكر غلد ميستر أن البشاري يتميز بوفرة مشاهداته وسعة اطلاعه. ورأى ألد ميلي أن ابن حوقل والمقدسي أبرز جغرافيّي القرن الرابع الهجري. وقال كراتشكوفسكي: إن المقدسي جغرافيّ عظيم، وكاتب عربي كبير. وأكّد أندريه ميكيل أن إسهام المقدسي في الجغرافية يتمثل، لا في أصالة بحثه، بل في مهارته بعرض الجغرافية البشرية الموروثة عن السلف لا سيما عن الاصطخري وابن حوقل. أما نحن فيبدو لنا أن أحسن التقاسيم أول مصنّف جغرافي عربي يتضمن كثيراً من أفكار الجغرافيا الحديثة دون تقنياتها".

وقال عبدالفتاح فتحي عبدالفتاح(٣٤): إن المقدسي "نجح في أن يوائم بين المعلومات الجغرافية والمادة التاريخية، فقدم للباحثين المعاصرين في مجال التاريخ مادة حضارية غزيرة، تسد كثيراً من الثغرات الموجودة في كتب التاريخ الأصيلة، ومن هنا حق لنا أن نعد (أحسن التقاسيم) مصدراً جديداً من مصادر تاريخ العرب".

أما عدي مخلص فقال عن المقدسي وكتابه(٣٥): "إننا لا يمكن أن نتجاهل ما قدمه لنا من المعلومات القيمة عن التجارة وطرق

---

(٣٣) المقدسي البشاري، ص٤٦.
(٣٤) المقدسي مؤرخاً لبلدان العرب، ص٢٤٣.
(٣٥) المرجع نفسه، ص١٥٤.

المواصلات والمعادن، وغيرها من المعلومات عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية والأمور الإدارية، تلك المعلومات التي لا يستهان بها في الكشف عن تاريخ القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) من الناحية الحضارية". وعن قيمة كتاب المقدسي التاريخية أيضاً قال عدي مخلص(٣٦): "أما أهمية المقدسي من الناحية التاريخية فتتجلى بما أفادنا به من المعلومات القيمة عن الأحوال الإدارية والاقتصادية والاجتماعية للبلدان التي زارها...، وتتجلى أهميته التاريخية أيضاً بتحريه الحقائق، وبهذا كان من الناحية التاريخية أميناً في نقل المعلومات التي يمكن الركون إليها. كما أن المقدسي أدرك نقطة حساسة من الناحية التاريخية، وهي تطور الأحوال بتطور الزمن وتقدمه".

ثانياً: مكة في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري كما وصفها المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم

الموقع والمناخ

اهتدى المقدسي بعد طول نظر وتأمل في الكون إلى انقسام الأرض إلى سبعة أقاليم فقط(٣٧)، وجعل موقع مكة الجغرافي ضمن نطاق الإقليم الثاني(٣٨). كما ألمح إلى تضاريس مكة فبيّن أنها تقع في

---

(٣٦) المرجع نفسه، ص٣١٥.

(٣٧) خالف المقدسي - على حدّ قوله - من سبقوه في هذا الموضوع، حيث جعلوا الأقاليم أربعة عشر إقليماً. (أحسن التقاسيم، ص٦٦).

(٣٨) المصدر السابق، ص٦٧. وقال المقدسي في تحديد هذا الإقليم: "الإقليم الثاني أوله حيث يكون الظلُّ إذا استوى الليل والنهار عند الظهيرة قدمين وثلاثة أخماس قدم، والذي بين طرفيه ثلاثمئة وخمسون ميلاً قاصداً، ووقع وسطه قرب يثرب، وأقصى جنوبيه وراء مكة، والآخر من قبل الشمال عند الثعلبية فمكة، والثعلبية بين إقليمين، ووقع في هذا الإقليم من المدن: مكة ويثرب والربذة وفيد والثعلبية وأسوان مصر إلى حد النوبة والمنصورة واليمامة وطائفة من بلاد السند والهند، وكل ما كان على خط هذه البلدان شرقاً وغرباً فهو داخل فيه. (أحسن التقاسيم، ص٦٧-٦٨).

شعب وادٍ، وشبه تضاريسها بعَمّان الشام، واصطخر بفارس، والحمراء بخراسان(٣٩). كما ذكر محاذاة جبلي قعيقعان وأبي قبيس لبعضهما البعض، وكأنه يشير دون تصريح بوقوع مكة بينهما(٤٠).

وسلط المقدسي الضوء على مناخ مكة، فقال(٤١): "حارة في الصيف إلا أن ليلها طيب قد رفع الله عنهم مؤونة الدفأ وأراحهم من كلف الاصطلاء". وقال عنه أيضاً(٤٢): "والليل بمكة في الصيف رطب... ويكون بالحرم حرٌّ عظيم، وريح تقتل، وذباب في غاية الكثرة". أما مناخ إقليم الجزيرة العربية بصفة عامة، فقال عنه(٤٣): "وهو إقليم شديد الحر، إلا السروات؛ فإن هواءها معتدل". وقال عنه وهو يتحدث عن خصائص الأقاليم(٤٤): "وأشدها حراً وقحطاً ونخيلاً جزيرة العرب".

مكانة مكة وأهميتها

قسم المقدسي البلدان الإسلامية التي خصص كتابه للحديث عنها - كما أشرنا سابقاً - إلى أربعة عشر إقليماً، وجعل الجزيرة العربية - التي قدمها على جميع الأقاليم الإسلامية في حديثه(٤٥) - إقليماً

---

(٣٩) أحسن التقاسيم، ص٧٥.

(٤٠) المصدر نفسه، ص٩٦.

(٤١) المصدر نفسه، ص٧٥.

(٤٢) المصدر نفسه، ص٩٠.

(٤٣) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٤٤) المصدر نفسه، ص٤١.

(٤٥) قال المقدسي معللاً سبب بدايته بالجزيرة العربية: "إنما بدأنا بجزيرة العرب؛ لأن بها بيت الله الحرام، ومدينة النبي عليه الصلاة والسلام، ومنها انتشر دين الإسلام. وفيها كان الخلفاء الراشدون، والأنصار والمهاجرون. وبها عُقدت رايات المسلمين، وقويت أمور الدين. وأيضاً فإن بها المشاعر والمناسك والمواقيت والمناحر. ثم هي عشرية قد ذكرها الأئمة في دواوينهم، ولابدّ للمدرسين من معرفتها في شروحهم، ولأن منها دحيت الأرض، ودعا إبراهيم عليه السلام الخلق". (المصدر السابق، ص٧٣).

واحداً، تضم مصرين(٤٦) هما: مكة وزبيد(٤٧)، وعدّ هذين المصرين من أبرز سبعة عشر مصراً إسلامياً(٤٨). كما بيّن المقدسي من خلال حديثه عن الحجاز أن مكة هي عاصمته وأكبر مدينة فيه، فقال(٤٩): "فأما الحجاز فقصبته مكة..."، وقال في موضع آخر، وهو يتحدث عن بلاد الحجاز أيضاً(٥٠): "مكة، هي مصر هذا الإقليم". وقد كشف لنا المقدسي من خلال معلوماته السابقة المكانة السياسية التي بلغتها مكة خلال النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، ومدى ما وصلت إليه حدودها الإدارية التي شملت جميع مدن بلاد الحجاز وقراه، التي عدّها المقدسي - حسب تقسيمه ومنهجه - مجرد نواح لمكة وتوابع لها. ومن هذا المنطلق فإننا لا نستبعد أن الدولة العبيدية (الفاطمية) - التي امتد حكمها إلى بلاد الحجاز منذ سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٨م(٥١)،

---

(٤٦) قال المقدسي في توضيح منهجه في تقسيم العالم الإسلامي آنذاك: "واعلم أنا جعلنا الأمصار كالملوك، والقصبات كالحجاب، والمدن كالجند، والقرى كالرجالة. وقد اختلف في الأمصار، فقالت الفقهاء: المصر كل بلد جامع يقام فيه الحدود، ويحله أمير، ويقوم بنفقته، ويجمع رستاقه، مثل: عثّر، ونابلس، ورونن. وعند أهل اللغة المصر كل ما حجز بين جهتين، مثل: البصرة، والرقة، وأرجان. والمصر عند العوام كل بلد كبير جليل، مثل: الري، والموصل، والرملة. وأما نحن فجعلنا المصر كل بلد حله السلطان الأعظم، وجمعت إليه الدواوين، وقُلّدت منه الأعمال، وأضيف إليه مدن الإقليم، مثل: دمشق، والقيروان، وشيراز. وربما كان للمصر أو القصبة نواح لها مدن، مثل: طخارستان لبلخ، والبطائح لواسط، والزاب لأفريقية". (أحسن التقاسيم، ص٥٤).

(٤٧) أما بقية المدن في إقليم الجزيرة فقد عدّها قصبات ونواحي ومدنًا وقرى، كما سنذكر.

(٤٨) أحسن التقاسيم، ص٥٤-٥٥.

(٤٩) المصدر نفسه، ص٧٤.

(٥٠) المصدر نفسه، ص٧٥.

(٥١) استغل أشراف الحجاز امتداد النفوذ العبيدي إلى مصر سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٨م؛ لإعلان تبعيتهم وولائهم لهم، في ظل مضايقة العباسيين، وكبتهم لأي محاولة علوية للظفر بحكم الحجاز. فقام بنو الحسن بالاستقلال بمكة، وبنو الحسين في المدينة، ومنذ ذلك الحين بدأ الصراع بين العباسيين والعبيديين على النفوذ في بلاد الحجاز. وكان أمير مكة خلال الفترة التي جاء فيها المقدسي إلى مكة - عقب قيام حكم الأشراف - عيسى بن جعفر بن محمد الموسوي الحسني الذي خلف والده =

ودخلت في صراع مع الدولة العباسية عليه - قد منحت شريف مكة آنذاك حكم الحجاز بصفة عامة، خصوصاً بعد أن نجح حكامها في السيطرة التامة على الحجاز منذ سنة ٣٦٥هـ/ ٩٧٥م(٥٢)، بعد أن وجدوا ميلاً وولاءً من الأشراف خاصة وأهل الحجاز عامة، وهو ما رآه المقدسي خلال مجيئه لمكة، وأكده في كتابه(٥٣). ومن جانب آخر فإن في ذكر المقدسي لتوابع مكة الإدارية دليلاً على توسع نطاق إمارتها، وبالتالي ازدياد نفوذ حاكمها، حيث أدْرج ضمن توابع مكة مجموعة من المدن والمناطق البعيدة عنها جغرافياً التي لم تكن - في الوقت ذاته - ضمن نطاقها الإداري سابقاً(٥٤). إن هذا وذاك يدفعنا إلى القول بأن معظم أشراف مكة كانوا أكثر ولاءً وانقياداً للعبيديين من أشراف المدينة، فنالوا بذلك ثقتهم، وتفضيلهم على غيرهم في المنطقة.

= على السلطة. لمزيد من المعلومات، انظر؛ الفاسي، شفاء الغرام في أخبار البلد الحرام. تحقيق، د. عمر عبدالسلام تدمري، ط١، بيروت: دار الكتاب العربي ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ج٢، ص٣٥١-٣٥٤؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى بأخبار أم القرى. تحقيق، فهيم محمد شلتوت، ط١، مكة المكرمة: مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م، ج٢، ص٤٠٦-٤١٦؛ أحمد بن عمر الزيلعي، مكة وعلاقاتها الخارجية" ٣٠١-٤٨٧هـ". ط١، الرياض: عمادة شؤون المكتبات، جامعة الرياض ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص٤٢-٤٥؛ صبحي عبدالمنعم محمد، العلاقات بين مصر والحجاز زمن الفاطميين والأيوبيين. القاهرة: العربي للنشر والتوزيع، (د. ت). ص٨١-٩٠.

(٥٢) الفاسي، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق: فؤاد سيد، ط٢، بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م. ج١، ص١٨٦. للمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع، انظر؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤١٣ وما بعدها؛ صبحي عبدالمنعم محمد، العلاقات بين مصر والحجاز، ص٨٨-٩١.

(٥٣) أحسن التقاسيم، ص٩٧-٩٨. وقد أكد نجم الدين بن فهد أن مكة استمرت في ولائها للدولة العبيدية - رغم محاولات العباسيين إعادتها لسلطتهم - نحو قرن من الزمن، فقال وهو يذكر قطع محمد بن جعفر بن أبي هاشم الخطبة للحاكم العبيدي المستنصر سنة ٤٦٢هـ/ ١٠٦٩م: "وأعاد الخطبة العباسية بعد قطعها من الحجاز نحو مئة سنة". (إتحاف الورى، ج٢، ص٤٧٣).

(٥٤) قال المقدسي في ذكر توابع مكة: ولمكة: منى، أمج، الجحفة، الفرع، جبلة، مهايع، حاذة، الطائف، بلدة. (أحسن التقاسيم، ص٦١).

لقد هيأت الظروف السابقة لمكة إبان النصف الثاني من القرن الرابع الهجري السبل الكفيلة لتطورها في شتى نواحي الحياة، فبلغت مكة آنذاك - ومن خلال نظرة المقدسي وشهادته - مكانة تفوقت بها على عدد من المدن المعروفة في الحجاز وغيره؛ فقد عدّها المقدسي - كما بيّنا سابقاً - قصبة بلاد الحجاز ومصره، ثم أشار خلال حديثه عن المدينة أن عمارتها أقل من نصف مكة⁽⁵⁵⁾، كما ذكر أيضاً أن مكة أكبر من مدينة بيت المقدس⁽⁵⁶⁾. فضلاً عن ذلك فقد أشاد بمكانتها في الحجاز وعظم عمارتها، مع كثرة عدد سكانها، وازدهار تجارتها آنذاك، فقال وهو يتحدث عن ناحية قُرح⁽⁵⁷⁾: "ناحية قرح: تسمى وادي القرى، وليس بالحجاز اليوم بلد أجل وأعمر وآهل وأكثر تجاراً وأموالاً وخيرات بعد مكة من هذا".

هيأت الظروف السابقة لمكة السبل الكفيلة لتطورها في شتى نواحي الحياة

وفي إمعان النظر في أقوال المقدسي وإشاراته السابقة كَشْف للكثير من الحقائق والمعلومات التاريخية والحضارية المتعلقة بمكة، فهي توحي بدخول مكة في عهد جديد من الاستقرار الأمني والتطور الحضاري خلال النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، بعد أن عانت مكة خلال النصف الأول من القرن نفسه الكثير من المشاكل السياسية، والأزمات الحضارية، التي نتج عنها اضطراب الأوضاع الأمنية، وتدهور الأوضاع الاقتصادية المختلفة، وتفاقم العديد من المشاكل الاجتماعية في ظل انشغال العباسيين بمشاكلهم عن بلاد الحجاز وإهمال شؤونه، وتزايد هجمات القرامطة والأعراب وتنوعها على مكة وطرق الحج، وكثرة نزاعات الأشراف على السلطة. من جانب آخر فإن معلومات المقدسي - المذكورة آنفًا - لتفصح لنا أيضاً

---

(٥٥) المصدر نفسه، ص٨١.

(٥٦) المصدر نفسه، ص١٤٤.

(٥٧) المصدر نفسه، ص٨٣.

عن واقع ملموس أصبحت مكة بمقتضاه أكبر مدينة حجازية من الناحيتين الإدارية والحضارية خلال النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، بعد أن كانت المدينة تتبوأ المكانة عينها قبل ذلك.

تخطيطها وعمارتها

قسم المقدسي المعمور في مكة بعد أن أكد وقوعه حول الكعبة قسمين رئيسين، فقال(٥٨): "وكل ما نزل عن المسجد الحرام يسمونه المسفلة، وما ارتفع عنه المعلاة. وعرضها سعة الوادي، والمسجد في ثلثي البلد إلى المسفلة، والكعبة في وسطه". وبهذا بيّن لنا المقدسي أن مكة كانت خلال زيارته لها عبارة عن جزئين؛ المعلاة في شمال المسجد الحرام وشمال شرقه، وتشكل بمساحتها العمرانية ثلثي البلد. في حين تأتي إلى الجنوب تقريباً من المسجد المسفلة، ويشكل عمرانها الثلث المتبقي من مكة.

من جانب آخر أشار المقدسي في حديثه المقتضب عن تخطيط حي أو جانب مخصص لسكن المصريين، وهو مجموعة من الدور الواقعة إلى الغرب من المسجد الحرام(٥٩). ولا نستبعد أن هذه الدور التي خصصت لسكن المصريين كانت حديثة النشأة، وجاءت على أثر تغلغل نفوذ حكومة مصر العبيدية في بلاد الحجاز، وخضوع أشرافه لسلطتها.

وقد وضح المقدسي أن مكة كانت إبان زيارته لها محصنة بالأسوار(٦٠)، كما بيّن أن الدخول إليها يتأتى عبر أربعة أبواب، مصنوعة

---

(٥٨) المصدر نفسه، ص٧٥.

(٥٩) المصدر نفسه، ص٧٦.

(٦٠) المصدر نفسه، والصفحة نفسها. ويبدو أن هذا السور هو ما بناه الخليفة العباسي المقتدر بالله (٢٩٥-٣٢٠هـ/ ٩٠٨-٩٣٢م) على مكة. (التلمساني، وصف مكة ووصف المدينة ووصف بيت المقدس. تحقيق، حمد الجاسر. مجلة العرب، س٨، ج١، ١٣٩٣هـ، ص٣٣٤). وكان أول من وضع سوراً على مكة واليها يزيد بن محمد بن حنظلة المخزومي. (الفاسي، العقد الثمين، ج٧، ص٤٦٧).

من الحديد؛ اثنين منها في الجهة الشرقية من السور، حيث يدخل منها القادمون من العراق، والثالث في الجهة الشمالية، ومنه يدخل القادمون من جهة التنعيم، أما الرابع ففي الجهة الجنوبية، وعبره يجتاز إلى داخل مكة الوافدون من اليمن. يقول المقدسي مبيّناً ذلك(٦١): "ويدخل إليها من ثلاثة وجوه، أبواب منى نحو العراق دربان، ثم درب العمرة، ثم درب اليمن بالمسفلة، والجميع مصفحة بالحديد"(٦٢).

أما عن دور مكة وبنائها والمواد المستخدمة في ذلك فذكر المقدسي أن منازلها على شكل طبقات، تبنى من الحجارة المختلفة الألوان والآجر، وتسقف بخشب الساج، فقال عنها(٦٣): "بناؤها حجارة سود ملس وبيض أيضا، وعلوها الآجر، كثيرة الأجنحة من خشب الساج، وهي طبقات مبيضة نظيفة". وقال موضحاً مواد البناء المستخدمة في أسواق منى(٦٤): "... وحوانيت حسنة البناء بالحجر وخشب الساج".

وصف الكعبة

تحدث المقدسي عن الكعبة بشكل مقتضب، فلم يدخل في التفاصيل الجزئية لمكوناتها، أو يتطرق لوصف محتوياتها الداخلية، وكان أبرز ما تناوله في هذا الجانب باب الكعبة؛ فبيّن أن ارتفاعه عن مستوى الأرض يقارب طول قامة رجل(٦٥). كما أشار إلى أنه عبارة

---

(٦١) أحسن التقاسيم، ص٧٦.

(٦٢) وللمزيد من المعلومات عن سور منى وأبوابه، انظر: التلمساني، وصف مكة والمدينة وبيت المقدس، ص٣٣٤؛ ابن جبير، الرحلة، بيروت: دار بيروت ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ص٨٧-٨٨، ٩١؛ مؤلف مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار. تحقيق، سعد زغلول عبدالحميد. بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة (د. ت)، ص٦-٧.

(٦٣) أحسن التقاسيم، ص٧٥.

(٦٤) المصدر نفسه، ص٧٨-٧٩.

(٦٥) المصدر نفسه، ص٧٥.

عن مصراعين(٦٦) ملبسين بصفائح الفضة التي طليت بالذهب(٦٧). فضلاً عن ذلك فقد أكد وجوده في جدارها الشرقي(٦٨). وعندما نمعن النظر في معلومات المقدسي السابقة عن باب الكعبة - وهو الذي زار مكة مرتين، وجاور فيها، كما أشرنا سابقاً - نجدها معلومات مختصرة لا تشبع نهم الباحثين أو المهتمين وتروي غليلهم، فلم يمدنا المقدسي بمعلومات عن مقاسات الباب المختلفة، أو يصف شكله، أو يذكر المواد التي صنع منها، أو غير ذلك من جوانب تتعلق بهذا الباب لفتت أنظار كثير من المؤرخين والجغرافيين والرحالة، فضمنوا مصنفاتهم وصفاً دقيقاً لها(٦٩).

---

(٦٦) وخالف الاصطخري الكثير ممن تحدثوا عن باب الكعبة، فذكر أنه مصراع واحد فقط. (مسالك الممالك، ليدن ١٩٢٧م، ص١٥).

(٦٧) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٧٥. وكان الوليد بن عبدالملك أول من ضرب على باب الكعبة صفائح الذهب، وهو أول من ذهّب البيت الحرام في الإسلام. ولم يستمر عمله طويلاً حيث رق وتفرق، فقام الخليفة العباسي الأمين أثناء خلافته بتكليف سالم بن الجراح - واليه على صوافي مكة - لعمل صفائح الذهب على الباب مرة أخرى، وزوده بثمانية عشر ألف دينار؛ ليضيفها لما تبقى من عمل الوليد، ويلبسها باب الكعبة. انظر؛ الأزرقي، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار. تحقيق، رشدي ملحس. ط٩، مكة المكرّمة: دار الثقافة ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، ج١، ص٢١٠-٢١١.

(٦٨) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٧٥. الجدير بالذكر أن أصل باب الكعبة المذكور كان من عمل الحجاج بن يوسف الثقفي عندما بنى الكعبة سنة ٧٣هـ. (البكري، المسالك والممالك، تحقيق: أدريان فان ليوفن وأندري فيري. تونس: الدار العربية للكتاب والمؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات ١٩٩٢م. ج١، ص٣٩٠). وقد استمر هذا الباب حتى سنة ٥٥١هـ عندما قام الوزير جمال الدين محمد بن علي بن أبي منصور المعروف بالجواد، وبأمر من الخليفة العباسي المقتفي بعمل باب للكعبة. لمزيد من المعلومات حول باب الكعبة والمستجدات التي حدثت له، انظر؛ الفاسي، شفاء الغرام، ج١، ص١٦٨-١٧١؛ حسين عبدالله باسلامة، تاريخ الكعبة المعظمة (عمارتها وكسوتها وسدانتها). ط٢، جدة: دار تهامة ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ص١٩٤-٢٠٣؛ إسماعيل أحمد حافظ، باب الكعبة المعظمة عبر العصور، مجلة الدارة، س٧، ع٣، ١٤٠٢هـ، ص٧-٢٥.

(٦٩) لمزيد من المعلومات عن باب الكعبة وما يتعلق به، انظر؛ الأزرقي، أخبار مكة، ج١، ص٣٠٥-٣٠٧؛ الحربي، المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة. تحقيق: حمد الجاسر. ط٢، الرياض: دار اليمامة ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٧م، ص٤٩٨-٤٩٩؛ ابن عبد ربه، العقد الفريد. تحقيق: مفيد محمد قميحة وعبدالمجيد الترحيني. ط١، بيروت: دار الكتب العلمية ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م، ج٧، ص٢٨٣-٢٨٤؛ التلمساني، وصف مكة =

ورغم تفاوت أقوال من سبقوا المقدسي أو جاؤوا بعده في مقدار ذرع طول الكعبة وعرضها، والذي يرجع في الغالب إلى اختلاف مقياس الذراع بينهم(٧٠)، وكذلك ميل بعضهم أيضاً إلى عدم تساوي أضلاعها المتقابلة، إلا أن المقدسي أكد أن الكعبة عبارة عن مستطيل متساوي الأضلاع، فقال(٧١): "وطول الكعبة أربعة وعشرون ذراعاً وشبر في ثلاث وعشرين ذراعاً وشبر".

= والمدينة وبيت المقدس، ص٣٤٠؛ ناصر خسرو، سفر نامة "رحلة ناصر خسرو القبادياني". ترجمة وتقديم، أحمد خالد البدلي، الرياض: عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص١٤٨-١٤٩؛ مؤلف مجهول، الاستبصار، ص١٦-١٧؛ ابن جبير، الرحلة، ص٦٠.

(٧٠) هناك أذرع معروفة في الأوساط الإسلامية، منها؛ ذراع العمل، والذراع الزيادي، والذراع الهاشمي وغيرها. لمزيد من المعلومات حول ذلك، انظر؛ القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا. شرحه وعلق عليه: محمد حسين شمس الدين، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ج٣، ص٥١٣-٥١٤.

(٧١) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٧٥. ويبدو أن سبب الاختلاف بين المصادر في تحديد أطوال الكعبة - بالإضافة لما ذكرنا من التفاوت في مقدار طول الذراع - زيادة الشاذروان، أخذ بعضهم المقياس من أسفلها، وبعضهم ربما أخذ القياس من فوق الشاذروان، ولذا فقد تفاوتت المقياسات بين المصادر.

وقد توافق مقياس المقدسي بدقة مع ابن خرداذبة، انظر؛ (المسالك والممالك، ليدن ١٨٨٩م، ص١٣٢-١٣٣). كما وافقه على تساوي أضلاعها المتناظرة رغم الاختلاف في مقدار الذرع كل من؛ الحربي، المناسك، ص٤٩٦-٤٩٧ (وإن كان قد شك في طول الضلع الشرقي)؛ ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ليدن ١٣٠٢هـ، ص٢٠؛ الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، (د. ت)، ج١، ص١٣٩-١٤٠؛ ابن جبير، الرحلة، ص٦٣؛ مؤلف مجهول، حدود العالم من المشرق إلى المغرب. تحقيق، يوسف الهادي. ط١، القاهرة: الدار الثقافية للنشر ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، ص١٢٤. وهناك من رأى اختلاف أطوال أضلاعها المتقابلة، ولا سيما الضلع الواقع ما بين الحجر الأسود والركن اليماني مع الركن المقابل له عند الحِجّر، ومن هؤلاء على سبيل المثال: الأزرقي، أخبار مكة، ج١، ص٢٨٨؛ اليعقوبي، البلدان. تحقيق، محمد أمين ضنّاوي. ط١، بيروت: دار الكتب العلمية ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م، ص١٥٣-١٥٤؛ ابن رستة، الأعلاق النفيسة، تحقيق، خليل المنصور، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، ص٣٤؛ ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج٧، ص٢٨٣؛ التلمساني، وصف مكة والمدينة وبيت المقدس، ص٣٣٧؛ البكري، المسالك والممالك، ج١، ص٣٩٢؛ مؤلف مجهول، الاستبصار، ص١٠-١١؛ الدياربكري =

أما ارتفاع الكعبة - الذي توافق فيه كلام المقدسي مع عدد كبير ممن أشاروا إليه(٧٢) - فبلغ على حدّ قوله سبعة وعشرين ذراعاً(٧٣). ورغم أن المقدسي لم يحدد نقاط قياسه هذا، أهو من خارج الكعبة أم من داخلها؟ وهل أدخل الشاذروان(٧٤) فيه أم لا؟ إلا أن الذي يتضح أن هذا المقياس كان من خارج الكعبة، كما أنه أيضاً لا يشمل الشاذروان، ويؤكد ما ذهبنا إليه الأزرقي حيث يقول(٧٥): "ذرع الكعبة

= تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس. مؤسسة شعبان، (د. ت)، ج١، ص١١٩-١٢٠. أما الزهري فقد ذكر أن أضلاع الكعبة الأربعة متساوية في الطول والعرض. (كتاب الجغرافية، ص٣٤).

(٧٢) انظر: الحربي، المناسك، ص٤٩٦؛ ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص١٣٣؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، ج١، ص١٤٠. وجاء في بعض المصادر أن ارتفاع البيت ثمانية وعشرون ذراعاً. (اليعقوبي، البلدان، ص١٥٣؛ إسحاق ابن الحسين، آكام المرجان في ذكر المدن المشهورة في كل مكان. تحقيق، فهمي سعد، ط١، بيروت: عالم الكتب ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص٢٧). وذكر ناصر خسرو أن الكعبة "بناء مربع إلى الاستطالة أقرب للزاوية الممتدة من الشمال إلى الجنوب، وتبدو أطول من الزاوية الممتدة من الشرق إلى الغرب". (سفر نامه، ص١٤٧-١٤٨). أما ابن جبير فقال عن ارتفاع الكعبة مستنداً على قول حاجب البيت آنذاك محمد بن إسماعيل بن عبدالرحمن الشيبي: "ارتفاعه في الهواء من الصفح الذي يقابل باب الصفا، وهو من الحجر الأسود، إلى الركن اليماني تسع وعشرون ذراعاً، وسائر الجوانب ثمان وعشرون، بسبب انصباب السطح إلى الميزاب". (الرحلة، ص٥٩).

(٧٣) أحسن التقاسيم، ص٧٥.

(٧٤) قال النووي: شاذَرْوان الكعبة، بناء لطيف جداً ملصق بحائط الكعبة، وارتفاعه عن الأرض في بعض المواضع نحو شبرين، وفي بعضها نحو شبر ونصف، وعرضها في بعضها نحو شبرين ونصف، وفي بعضها نحو شبر ونصف. (تهذيب الأسماء واللغات، بيروت: دار الكتب العلمية، د. ت، ج٣، ص١٧١-١٧٢). وقال الفاسي: أما شاذروان الكعبة فهو الأحجار الملاصقة بالكعبة التي عليها البناء المسنم المرخّم في جوانبها الثلاثة، الشرقي والغربي واليماني، وبعض حجارة الجانب الشرقي لا بناء عليه، وهو شاذروان أيضاً. أما الحجارة الملاصقة بجدار الكعبة الذي يلي الحِجْر فليست شاذرواناً؛ لأن موضعها بالكعبة بلا ريب، والشاذروان هو ما نقصته قريش من عرض جدار أساس الكعبة حتى ظهر على الأرض كما هي عادة الناس في الأبنية. (شفاء الغرام، ج١، ١٨٣). وللمزيد من المعلومات عن الشاذروان وما يتعلق به من معلومات، انظر: الأزرقي، أخبار مكة، ج١، ص٣٠٨؛ الفاسي، شفاء الغرام، ج١، ص١٨٣-١٨٥؛ باسلامة، تاريخ الكعبة المعظمة، ص١٤٣-١٤٨.

(٧٥) أخبار مكة، ج١، ص٣٠٨.

من خارجها في السماء من البلاط المفروش حولها تسعة وعشرون ذراعاً وستة عشر إصبعاً، وطولها من الشاذروان سبعة وعشرون ذراعاً". وكذلك التلمساني الذي قال(٧٦): "وارتفاع البيت في الهواء من خارج الأرض إلى أعلى البيت ثلاثون ذراعاً، طول جدار البيت منها سبعة وعشرون ذراعاً، وعليه طرابزين، تعلق منه الكسوة، وقد استعلت عليه بذراعين، فكمل بذلك ارتفاع البيت مع الكسوة والطرابزين ثلاثون ذراعاً، هذا ارتفاع البيت من الخارج".

وقد أتحفنا المقدسي - وهو يتحدث عن الكعبة - بمسافة الطواف حولها، فأشار إليه قائلاً(٧٧): "وذرع الطواف مئة ذراع وسبعة أذرع". ويبدو أن اختلافه في مقدار طول الطواف مع عدد من المصادر ناتج عن الاختلاف في التحديد الدقيق لمقدار وحدة القياس آنذاك، وهي الذراع، كما أشرنا إلى ذلك سابقاً(٧٨).

وصف الحِجْر (حِجْر إسماعيل)

تحدث المقدسي عن إدخال عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما الحِجْر ضمن الكعبة عندما أعاد بناءها خلال حركته التي قام بها في الحجاز ضد الأمويين، كما ذكر موقف الحجاج بن يوسف من ذلك بعد قضائه على حركة ابن الزبير سنة ٧٣هـ/ ٦٩٢م، فقال المقدسي بعد أن ساق حديث عائشة رضي الله عنها الذي ينص على أن الحِجْر ضمن الكعبة(٧٩): "ويقال: إن ابن الزبير أدخل عشرة من مشايخ

---

(٧٦) وصف مكة والمدينة وبيت المقدس، ص٣٣٨.

(٧٧) أحسن التقاسيم، ص٧٥.

(٧٨) ومن ذلك - مثلاً - الأزرقي الذي ذكر أن ذرع طواف واحد يبلغ (١٢٣) ذراعاً و(١٢) إصبعاً. (أخبار مكة، ج١، ص٣١٩)؛ والحربي الذي بيّن أن طوله (١٢٠) ذراعاً. (المناسك، ص٤٩٩)، وابن الفقيه الذي أشار إلى أن المطاف حول الكعبة يبلغ (١٠٥) أذرع. (مختصر كتاب البلدان، ص٢١). أما ابن خرداذبة فقد وافق المقدسي في ذرعه للطواف. (المسالك والممالك، ص١٣٣). وهذا يزيد التأكيد على أن المقدسي قد نقل جميع القياسات التي أوردها في كتابه من ابن خرداذبة، كما ألمحنا إلى ذلك سابقاً.

(٧٩) أحسن التقاسيم، ص٧٧.

الصحابة حتى سمعوا ذلك منها، ثم أمر بهدم الكعبة؛ فاجتمع إليه الناس، وأبوا ذلك، فأبى إلا هدمها، فخرج الناس إلى فرسخ خوفاً من نزول عذاب، وعظم ذلك عليهم، ولم يكن إلا الخير. وبناها على ما حكت عائشة، وتراجع الناس، فلما قدم الحجاج تحرم ابن الزبير بالكعبة، فأمر بوضع المنجنيق على أبي قبيس، وقال: ارموا الزيادة التي ابتدعها هذا المكلف، فرموا موضع الحطيم، وأخرج ابن الزبير وصلبه، ورد الحائط كما كان في القديم، وأخذ بقية الأحجار، فسد منها الباب الغربي، ورصف بقيتها في البيت كيلا تضيع"(٨٠).

وقد أتى المقدسي في حديثه عن ذرع تدوير الحجر بمقياس أقل بكثير عمَّا جاء في المصادر التي تحدثت عن هذا الجانب، فذكر أن ذرع تدويره خمسة وعشرون ذراعاً(٨١). ومن خلال التأمل الدقيق مع النظر في ما ورد في المصادر فقد تبين لنا أن المقدسي - رغم أنه لم يفصح عن ذلك - قد أخذ مقياسه المذكور من داخل الحجر، كما أنه بدأ مع بداية الجدار الموضوع على الحجر، ولم يبدأ بركن الكعبة المحاذي للجدار. ولعل في ما أورد كل من الأزرقي والحربي تبيان لذلك وتوضيح له، يقول الأزرقي عن مقياس تدوير الحجر من الداخل والخارج(٨٢): "وذرع تدوير الحجر من داخله ثمانية وثلاثون ذراعاً، وذرع تدوير الحجر من خارج أربعون ذراعاً وست أصابع"، كما ذكر الأزرقي ذرع باب الحجر، فقال(٨٣): "ذرع باب الحجر الذي يلي المشرق مما يلي المقام خمسة أذرع وثلاثة أصابع...، وذرع باب الحجر

---

(٨٠) لمعلومات أكثر تفصيلاً عن بناء ابن الزبير للكعبة سنة ٦٤هـ/ ٦٨٣م، وموقف الحجاج من بنائه بعد قتل ابن الزبير سنة ٧٣هـ/ ٦٩٢م، انظر: الأزرقي، أخبار مكة، ج١، ص٢٠٠-٢١٩؛ الحربي، المناسك، ص٤٨٨-٤٩٦؛ الفاسي، شفاء الغرام، ج١، ص١٥٧-١٦١؛ باسلامة، تاريخ مكة المعظمة، ص٦٧-٩٢.

(٨١) أحسن التقاسيم، ص٧٥.

(٨٢) أخبار مكة، ج١، ص٣١٨.

(٨٣) أخبار مكة، ج١، ص٣١٨-٣١٩.

الذي يلي المغرب سبعة أذرع". ويقول الحربي في هذا الجانب أيضاً(٨٤): "وذرع تدوير الحجر من داخل ثلاث وثلاثون ذراعاً، وذرع تدوير الحجر أيضاً من خارج تسع وثلاثون ذراعاً وشبر، وذرع باب الحجر الشرقي ما يلي وجه الكعبة أربع أذرع وشبر، وذرع باب الحجر الغربي ست أذرع إلا أربع أصابع". ويبدو أن الأزرقي والحربي بمقياسيهما المذكورين للحجر قد ضما إلى تدوير مقياسه أطوال الأبواب اللافظة عليه.

من جانب آخر وصف المقدسي باختصار موقع الحِجْر وشكله، فقال(٨٥): "والحِجْر من قبل الشام، فيه يقلب الميزاب شبه أندر(٨٦) قد ألبست حيطانه بالرخام مع أرضه(٨٧)، ارتفاعها حَقْو(٨٨)، ويسمونه

---

(٨٤) المناسك، ص٤٩٩.

(٨٥) أحسن التقاسيم، ص٧٥.

(٨٦) جاء عند ياقوت الحموي الذي نقل المعلومة عن المقدسي: شبه الأندر (معجم البلدان، ج٤، ص٤٦٤). والأَنْدَر: هو البَيْدَر. وهو الموضع الذي يداس فيه الطعام. وقيل: الكدس من القمح خاصة. (ابن منظور، لسان العرب، القاهرة: دار المعارف (د. ت)، ج١، ص٢٢٩، ج٧، ص٤٣٨٢). وهو بهذا - كما يظهر - يُشَبِّه الحجر بالبيدر الذي غالباً ما يكون بشكل دائري.

(٨٧) قال الأزرقي عن الرخام الموضوع على جدران الحجر وأرضه بعد أن ذكر أن أبا جعفر المنصور قد كسا جدرانه بالرخام، ثم فرش المهدي أرضيته بالرخام أيضاً: "قال أبو محمد الخزاعي: أنا أدركت هذا الرخام الذي عمله (يقصد المهدي)، وكان رخاماً أبيض وأخضر وأحمر، وكان مزويا وشوابير صغاراً، ومدخلاً بعضه في بعض أحسن من هذا العمل، ثم تكسر؛ فجدده أبو العباس عبدالله بن محمد بن داود بن عيسى وهو أمير مكة في سنة إحدى وأربعين ومئتين، ثم جدد بعد ذلك في سنة ثلاث وثمانين ومئتين". وقال في موضع آخر: "فلم يزل رخام الحجر الذي عمله المهدي بعد عمل أبي جعفر أمير المؤمنين على حاله، وكان سيله يخرج من تحت الأحجار التي على بابها الغربي حتى رث في خلافة المتوكل على الله جعفر أمير المؤمنين، فقلع سنة إحدى وأربعين ومئتين، وألبس رخاماً حسناً قلع من جوانب المسجد الحرام من الشق الذي يلي باب العجلة إلى باب دار عمرو بن العاص، ومما يلي أبواب بني مخزوم والباب الذي مقابل باب عبدالله بن جدعان". (أخبار مكة، ج١، ص٣١٢، ٣١٥).

(٨٨) الحَقو، الخصر، ومشد الإزار من الجنب. (ابن منظور، لسان العرب، ج٢، ص٩٤٨).

الحطيم(٨٩)، والطواف من ورائه". ورغم اختصار المقدسي في وصف الحجر إلا أنه أمدنا بمعلومات طيبة عن موقع الحجر بالنسبة للكعبة عندما أشار إلى وجوده جهة الركن الشامي، وبيّن أن ميزاب الكعبة يصب فيه. كما زودنا بمعلومات أخرى حين أكّد أن جميع حيطانه وأرضه قد ألبست بالرخام، وأن ارتفاع جداره عن مستوى الأرض يقارب المتر.

الحجر الأسود

ألقى المقدسي الضوء على موقع الحجر الأسود في الكعبة وارتفاعه عن مستوى الأرض، فقال(٩٠): "والحجر الأسود على الركن الشرقي عند الباب على لسان الزاوية مثل رأس الإنسان، ينحني إليه مَنْ قبَّله يسيراً". وقد بيّن من خلال قوله: ينحني إليه مَنْ قبَّله يسيراً، أن ارتفاعه قريب من قامة إنسان، وهذا ما أشار إليه بالفعل كل من الاصطخري(٩١) وابن حوقل(٩٢). وكان المتوقع من المقدسي وهو قريب من أحداث هجوم القرامطة على مكة، وانتزاعهم الحجر الأسود سنة ٣١٧هـ/ ٩٢٩م، ثم أخذه إلى الأحساء، وبقائه عندهم حتى سنة ٣٣٩هـ/ ٩٥٠م أن يشير إلى هذا الاعتداء الأثيم على الحجر الأسود، وما لحق به من ضرر على أيديهم، ثم ما عُمل له من طوق فضة بعد رده إلى موضعه(٩٣).

---

(٨٩) اختُلِف حول تحديد مكان الحطيم، فقيل: إنه ما بين الحجر الأسود ومقام إبراهيم وزمزم وحِجْر إسماعيل، وقيل: الموضع الذي فيه ميزاب الكعبة، وقيل: جدار الحِجْر، وقيل: الشاذروان. (الفاسي، شفاء الغرام، ج١، ٣١٨). وقال حسين باسلامة بعد أن ذكر الاختلافات حول تحديد مكان الحطيم بين المصادر: "فعلم مما تقدم أن الحجر يعرف أيضاً بالحطيم قديماً وحديثاً، كما أن الملتزم يعرف بالحطيم أيضاً، وما بين زمزم والمقام والكعبة يسمى الحطيم". (تاريخ الكعبة المعظمة، ص١٦٥).

(٩٠) أحسن التقاسيم، ص٧٥.

(٩١) مسالك الممالك، ص١٦.

(٩٢) صورة الأرض، بيروت: دار مكتبة الحياة ١٩٧٩م، ص٣٦.

(٩٣) وحول هذا الموضوع، انظر؛ الفاسي، شفاء الغرام، ج١، ٣١٢-٣١٤؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٣٧٤-٣٨٠، ٣٩٤-٣٩٦.

ولكن يبدو أن ميل المقدسي للاختصار، فضلاً عن رغبته في عدم الدخول في أمور سياسية وعقدية قد تسبب له المشاكل في وقت كان للحركة القرمطية شأنها السياسي في الجزيرة العربية، قد جعله يعرض عن ذكر هجومهم على مكة، أو حتى الحديث عمَّا رآه في الحجر الأسود، رغم أهمية ذلك.

عمارة المسجد الحرام

حفل أحسن التقاسيم بمعلومات وافرة ومتنوعة عن المسجد الحرام، وجاءت أغلب هذه المعلومات مركزة على جوانب عمرانية وإنشائية، فكان مما تحدث عنه المقدسي في هذا الجانب عمارة المسجد الحرام، فذكر عمارة الخليفة العباسي المنصور للمسجد التي ابتدأت سنة ١٣٧هـ/ ٧٥٤م، وانتهت سنة ١٤٠هـ/ ٧٥٧م(٩٤)؛ وقد بيّن المقدسي - من خلال رواية أوردها عن بعض مشايخ القيروان الذين قابلهم في مكة، كما يبدو - سبب توسعة المنصور للمسجد، واعتراض أصحاب الدور المحيطة به، ثم تدخل الإمام أبي حنيفة وإقناعهم بالتوسعة، يقول المقدسي موضحاً ذلك(٩٥): "سمعت بعض مشايخ القيروان يقول: حج المنصور؛ فرأى صغر المسجد الحرام وشعثه وقلة معرفتهم بحرمته، ورأى الأعرابي يطوف بالبيت على بعيره وبجاويّه(٩٦)؛ فساءه ذلك، وعزم على شراء ما حوله من الدور وزيادتها فيه، وتفخيمه وتجصيصه. فجمع أصحابها ورغّبهم في الأموال الجمّة، فتأبَّوا عن بيعها، وضنوا بجوار بيت الله الحرام، فاهتم لذلك، ولم يُجزْ أن يغصبها عليهم، ولم يظهر للناس ثلاثة أيام. وتحدث الناس بَذلك، وأبو حنيفة في تلك السنة حاج، وليس له بعدُ ذكر ولا ظهر الناس على فقهه، وصائب رأيه، قال: فقصد خيامه، وكانت

---

(٩٤) الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص٧٤؛ إسحاق بن الحسين، آكام المرجان، ص٢٧.

(٩٥) أحسن التقاسيم، ص٧٧-٧٨.

(٩٦) نوع من النوق ينسب إلى بلاد بُجاوة من أرض النوبة، وكانوا يطاردون عليها كما يطارد على الخيل. (ابن منظور، لسان العرب، ج١، ص٢١٤).

بالأبطح، فسأل عن أمير المؤمنين وما الذي غيب شخصه. فذكرت القصة، فقال: هذا باب هيّن لو لقيته عرضته عليه. فأُنهي ذلك إليه، فأمر بإحضاره. فلما سأله عن ذلك قال أبو حنيفة: يحضرهم أمير المؤمنين؛ فيسألهم أهذه الكعبة نزلت عليكم أم نزلتم عليها. فإن قالوا: نزلت علينا كُذّبوا؛ لأن منها دحيت الأرض. وإن قالوا: نحن نزلنا عليها، فجوابهم أنه قد كثر زوّارها وضاقت ساحتها، فهي أحق بفنائها، ففَرِّغوه لها(٩٧). فلما جمعهم وسألهم قال سفيرهم، وكان رجلاً هاشمياً: نحن نزلنا عليها. قال: ردُّوا فناءها، فقد كثر زوارها، واحتاجت إليه، فبهتوا، ورضوا بالبيع". ولم يوضح المقدسي الجوانب المعمارية المتعلقة بهذه التوسعة ومقدارها، وإنما اكتفى بالمعلومات المذكورة فقط(٩٨).

من جانب آخر سلط المقدسي الضوء على البناء الذي رأى عليه المسجد الحرام عند زيارته لمكة، فقال(٩٩): "وأدير على صحنه أروقة ثلاثة على أعمدة رخام، حملها المهدي من الإسكندرية في البحر إلى جدة، والمسجد من بنائه، وقد ألبست حيطان الأروقة من الظاهر بالفسيفساء، حمل إليها صناع الشام ومصر، ألا ترى أسماءهم عليه". وقد أبان المقدسي من خلال حديثه هذا أن المسجد الحرام ما زال حتى أواخر القرن الرابع الهجري على بناء الخليفة العباسي المهدي، الذي

---

(٩٧) ذكر الأزرقي أن الذي أقنع أصحاب الدور بهذه الحجة هو الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه أثناء توسعته للمسجد سنة ١٧هـ، كما أن الأزرقي لم يُشر في حديثه عن توسعة الخليفة المنصور للمسجد لدور أبي حنيفة. (أخبار مكة، ج٢، ص٦٩، ٧٢-٧٤). ويبدو أن ميل المقدسي للمذهب الحنفي وتفقهه فيه - كما ذكرنا سابقاً - قد شجعه لتضمين هذه الرواية التي ترفع من قدر الإمام أبي حنيفة رحمه الله في كتابه.

(٩٨) للمزيد من المعلومات عن توسعة الخليفة العباسي المنصور، انظر؛ الأزرقي، المصدر السابق، ج٢، ص٧٢-٧٤؛ الفاكهي، أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه. تحقيق: عبدالملك بن عبدالله بن دهيش، ط١، مكة: مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م، ج٢، ص١٦٢-١٦٥.

(٩٩) أحسن التقاسيم، ص٧٦.

تم خلال العقد السابع من القرن الثاني الهجري. كما أوقفنا على أجزاء من عمارة الخليفة المهدي فبيّن أن عدد أروقة المسجد ثلاثة، تدور على جنبات الصحن الأربع، وتقوم على أعمدة من الرخام الذي جلب إلى مكة من مصر. وأشار إلى أن جدران المسجد من الداخل قد زينت بالفسيفساء(١٠٠)، ووضح أن إنجاز هذه الأعمال كان بوساطة عمال مهرة جلبوا لهذا الغرض من بلاد الشام ومصر. ثم انفرد المقدسي بمعلومة غاية في الأهمية عندما بيّن لنا أن الصناع الذين قاموا بأعمال البناء في المسجد الحرام آنذاك قد نقشوا أسماءهم على أعمالهم العمرانية، وأنه رأى ذلك بعينه باقياً خلال وجوده بمكة(١٠١).

ومضى المقدسي في حديثه عن المسجد الحرام، فذكر أن طوله يبلغ ثلاثمئة وسبعين ذراعاً، وعرضه ثلاثمئة وخمسة عشر ذراعاً(١٠٢). وفي ما أورده المقدسي عن طول المسجد وعرضه نظر، فبالرغم من أن المسجد لم تحصل له توسعة تذكر بعد عمارة الخليفة المهدي سوى إدخال الخليفة المعتضد العباسي سنة ٢٨٤هـ/ ٨٩٤م ما تبقى من دار الندوة ضمن الجهة الشمالية من المسجد، وزيادة الخليفة المقتدر العباسي سنة ٣٠٦هـ/ ٩١٨م للمسجد عند باب إبراهيم من الجهة الغربية(١٠٣)، إلا أن المقدسي ذكر أن مقدار طول المسجد ٣٧٠ ذراعاً كما بيّنا، في حين أكدت أكثر المصادر أن طوله أكثر من ٤٠٠ ذراع. وفي الوقت نفسه فقد زاد المقدسي في ذرع

---

(١٠٠) أشار إلى ذلك ابن عبد ربه، فقال: "وسور المسجد كله من داخله مزخرف بالفسيفساء". (العقد الفريد، ج٧، ص٢٨٣).

(١٠١) للمزيد من المعلومات عن توسعات الخليفة المهدي، انظر؛ (الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص٧٤-٨١؛ الفاكهي، أخبار مكة، ج٢، ص١٦٥-١٧٤).

(١٠٢) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٧٥.

(١٠٣) الفاسي، شفاء الغرام، ج١، ص٣٦٢-٣٦٩؛ النهرواني، الإعلام بأعلام بيت الله الحرام. تحقيق، هشام عبدالعزيز عطا. ط١، مكة المكرمة: المكتبة التجارية ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، ص١٧٨-١٨٢، ١٩٢-١٩٣.

عرض المسجد عما جاء في المصادر عندما جعل عرضه ٣١٥ ذراعاً(١٠٤). ويبدو أن المقدسي لم يقم بنفسه بأخذ مقياس طول المسجد الحرام وعرضه، وإنما اعتمد في ذلك على ما أورده ابن خرداذبة(١٠٥). ولعل معرفة المقدسي ويقينه بأنه لم يطرأ على المسجد الحرام أي تغير فيما بعد ابن خرداذبة قد دفعه للاعتماد على معلوماته دون تمحيص أو تطبيق(١٠٦).

أبواب المسجد الحرام

تناول المقدسي بالحديث أبواب المسجد الحرام، فقال(١٠٧): "وله تسعة عشر باباً: باب بني شيبة، باب النبي، باب بني هاشم، باب الزياتين، باب البزازين، باب الدقاقين(١٠٨)، باب بني مخزوم، باب الصفا، باب زقاق الشطوي، باب التمارين، باب دار الوزير، باب أجياد،

---

(١٠٤) اتفقت مجموعة من المصادر أن طول المسجد في عرضه (٤٠٣×٤٠٤). انظر؛ الأزرقي، ج٢، ص٨٢. (إلا أنه ذكر أن عرضه مع أطرافه يبلغ ٢٧٨ ذراعاً)؛ اليعقوبي، البلدان، ص١٥٣؛ ابن رسته، الأعلاق النفيسة، ص٤٦؛ ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج٧، ص٢٨٢؛ البكري، المسالك والممالك، ج١، ص٣٩١-٣٩٢. في حين جاء طوله وعرضه في مصادر أخرى (٤٠٧×٢٨٠). (التلمساني، وصف مكة والمدينة وبيت المقدس، ص٣٤٣؛ مؤلف مجهول، الاستبصار، ص٢٣-٢٤). كما ذكرت مصادر ثالثة أنه (٤٠٠×٣٠٤) ذراع. (إسحاق بن الحسين، آكام المرجان، ص٢٧؛ ابن جبير، الرحلة، ص٦٧؛ ناصر خسرو، سفر نامة، ص١٤٥). إلا أن ناصر خسرو أكد أن عرض المسجد متفاوت في مقياسه عندما قال: "ومساحة عرض المسجد ليست واحدة دائماً، ولكن ذرعت أوسع جهاته فبلغت ثلاثمئة ذراع في مكان وأربعمئة ذراع في مكان آخر، فهذا الجانب العرضي به نتوءات لا تسمح باطراده". أما ابن الفقيه - الذي يبدو أنه نقل من الأزرقي - فذكر أنه (٣٠٤×٢٧٨) ذراعاً. (مختصر كتاب البلدان، ص٢١).

(١٠٥) المسالك والممالك، ص١٣٢.

(١٠٦) الجدير بالذكر أن الفاسي أشار إلى أن رواية ابن خرداذبة في ذرع المسجد طولاً وعرضاً رواية غريبة. (شفاء الغرام، ج١، ص٣٧٠).

(١٠٧) أحسن التقاسيم، ص٧٦.

(١٠٨) قال ابن منظور: الدَّق كل شيء دق وصغر. والدقيق: الطحين. وأهل مكة يسمون توابل القدر كلها دُقة. والدقة: التوابل وما خلط بها من الأبزار. (لسان العرب، ج٣، ص١٤٠٢). ومن ذلك يتضح أن المقدسي أراد بذلك باعة التوابل وما شابهها، خصوصاً، وقد كانت هذه السلع منتشرة بكثرة في مكة آنذاك.

باب الحزورة، باب إبراهيم، باب بني سهم، باب بني جمح، باب العجلة، باب الندوة، باب البشارة". وكما نرى فإن المقدسي اقتصر على ذكر عدد أبواب المسجد الحرام وأسمائها دون أن يذكر مواقعها بالنسبة لجهات المسجد.

وقد اتضح - بعد تتبع ما جاء عنها في عدد من المصادر - أن المقدسي بدأ بسرد أسمائها مبتدئاً من الجهة الشرقية، متجها من الشمال إلى الجنوب، وكان مما رآه في هذا الجانب خمسة أبواب؛ هي: باب بني شيبة، باب النبي، باب بني هاشم، باب الزياتين، وباب البزازين.

ثم أعقب ذلك بأبواب الشق الجنوبي من المسجد مبتدئاً من الشرق ومنتهياً بالغرب، وفيه أورد سبعة أبواب؛ هي: باب الدقاقين، باب بني مخزوم، باب الصفا، باب زقاق الشطوي، باب التمارين، باب دار الوزير، وباب أجياد.

وانتقل بعد ذلك إلى الجانب الغربي من المسجد، فذكر الأبواب الموجودة فيه من الجنوب إلى الشمال، وعددها ثلاثة أبواب؛ هي: باب الحزورة، باب إبراهيم، وباب بني سهم. ثم ختم كلامه بأبواب الشق الشمالي من المسجد، وذكر منها أربعة أبواب؛ هي من الغرب إلى الشرق: باب بني جمح، باب العجلة، باب الندوة، وباب البشارة.

وفي الاطلاع على ما جاء حول هذا الجانب في المصادر إبان العصور الإسلامية المختلفة نلحظ تبايناً واضحاً في أسماء أبواب المسجد الحرام وعددها. ويبدو أن ذلك قد تحكمت فيه اجتهادات المؤلفين، ولا سيما في تسمية الأبواب غير المشهورة(١٠٩). كما أن إدراج بعض الأبواب اللافظة على البيوت المجاورة للحرم مباشرة

---

(١٠٩) يقول ابن جبير موضحاً ذلك، بعد أن ذكر أبواب المسجد الحرام: "والروايات فيها تختلف، لكنا اجتهدنا في إثبات الأقرب من أسمائها إلى الصحة، والله المستعان لا رب سواه". (الرحلة، ص٨٣).

ضمن أبواب الحرم في بعض المصنفات، واقتصارها عند آخرين على ما يفتح على أزقة أو أسواق قد أدى إلى التفاوت الواضح في تعدادها بين المصادر(١١٠).

ونلحظ أن المقدسي قد اجتهد كثيراً في تسمية بعض الأبواب وذلك حسب ما رآه منتشراً من باعة وأسواق وبضائع لفتت انتباهه حول هذه الأبواب، ولا سيما في الجانبين الشرقي والجنوبي(١١١)، وما أملاه عليه حسه التجاري الذي تميز به، فأطلق عليها أسماء الباعة أو مبيعاتهم دون أن يرجع لمن سبقه ممن تحدثوا عن ذلك، كالأزرقي أو الفاكهي أو غيرهم. ولهذا فإننا نرى أن تسميات المقدسي لهذه الأبواب، التي ترتبط - كما يلحظ - بالتغيرات الزمانية والمكانية، كانت سبباً في عدم استمرار هذه الأسماء التي أطلقها، أو ذِكرها في المصادر التي تناولتها، سواء قبل المقدسي أو بعده.

من جانب آخر فإن المقدسي ومن خلال تعداده لأبواب المسجد الحرام قد راعى - فيما يبدو - الأفضلية، فبدأ بذكر باب بني شيبة؛ لأن المستحب للمعتمر والحاج الدخول للمسجد من هذا الباب(١١٢).

---

(١١٠) وعن عدد أبواب المسجد الحرام وأسمائها، والاختلاف في ذلك، انظر على سبيل المثال؛ الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص٨٧-٩٥؛ الفاكهي، أخبار مكة، ج٢، ص١٨٨-١٩٨؛ الحربي، المناسك، ص٤٧٥-٤٨٠؛ ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص٢١؛ ابن رستة، الأعلاق النفيسة، ص٤٩-٥٤؛ ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج٧، ص٢٨٣؛ التلمساني، وصف مكة والمدينة وبيت المقدس، ص٣٤٣-٣٤٥؛ إسحاق بن الحسين، آكام المرجان، ص٢٧؛ البكري، المسالك والممالك، ج١، ص٣٩٢-٣٩٣؛ مؤلف مجهول، الاستبصار، ص٢٤-٢٧؛ ابن جبير، الرحلة، ص٨٢-٨٣؛ الفاسي، شفاء الغرام، ج١، ص٣٨١-٣٨٥؛ باسلامة، تاريخ عمارة المسجد الحرام، ط٣، جدة: دار تهامة ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، ص١١٢-١٣٤.

(١١١) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٧٦.

(١١٢) يقول ابن جبير: "وكل وافد إلى مكة، شرفها الله، يدخلها بعمرة فيستحب له الدخول على باب بني شيبة". (الرحلة، ص٨٣). وهو المعروف الآن بباب السلام. (الفاسي، شفاء الغرام، ج١، ص٣٨١).

المطاف: أرضه وإنارته

أتحفنا المقدسي بمعلومات دقيقة وقيمة عن المطاف حول الكعبة، فذكر لنا أن مكان الطواف مفروش بالرمل، أما بقية أرضية المسجد فهي مغطاة بالحصى، يقول(١١٣): "وقد فرش الطواف بالرمل، والمسجد بالحصى"(١١٤). كما شرح طريقة إنارة المطاف، فقال(١١٥): "وقد أحاط بالطواف أميال من الصفر، وخشبات فيها قناديل معلقة، ويجعل فوقها الشمع لملوك مصر واليمن والشار صاحب غرجستان". كما أشار إلى أن هذه القناديل كانت تعلق بالسلاسل، فقال وهو يتحدث عن بعض العادات السائدة في بلاد الشام(١١٦): "ورسومهم أنهم يوقدون القناديل في مساجدهم على الدوام يعلقونها بالسلاسل مثل مكة". وقد وضح المقدسي من خلال ذلك كيفية إنارة المطاف، بعد أن بيّن أن هناك أعمدة، أطلق عليها اسم الأميال، مصنوعة من حديد الصفر، وتصل بينها أخشاب تعلق فيها القناديل بالسلاسل، وفي هذه القناديل كانت توضع الشموع(١١٧).

---

(١١٣) أحسن التقاسيم، ص٧٦.

(١١٤) جاء في كتاب الاستبصار ما نصه: "وأرض المسجد الحرام رملة في قوام السميد". (مؤلف مجهول، ص٢٩). أما ابن جبير فقال: "وموضع الطواف مفروش بحجارة مبسوطة كأنه الرخام حسناً، منها سود وسمر وبيض قد ألصق بعضها إلى بعض، واتسعت عن البيت بمقدار تسع خُطا إلا في الجهة التي تقابل المقام، فإنها امتدت إليه حتى أحاطت به. وسائر الحرم مع البلاطات كلها مفروش برمل أبيض". (الرحلة، ص٦٣).

(١١٥) أحسن التقاسيم، ص٧٦.

(١١٦) المصدر نفسه، ص١٥٦.

(١١٧) قال الأزرقي عن العمد الصفر بالمسجد الحرام: "أخبرني الثقة أن هذه العمد الصفر كانت في قصر بابك الخرمي بناحية أرمينية كانت في صحن داره يستصبح فيها، فلما خذله الله، وقتل بابك، وأتي برأسه إلى سامراء، وطيف به في البلدان، وكان قد قتل خلقاً عظيماً من المسلمين، وأراح الله منه هدمت داره، وأخذت هذه الأعمدة التي حول البيت الحرام في الصف الأول، ومنها في دار الخلافة أربعة أعمدة، وبعث بهذه الأعمدة المعتصم بالله أمير المؤمنين في سنة مئتين ونيف وثلاثين، فهذا خبر الأعمدة الصفر التي حول الكعبة وهي عشرة أساطين، وكانت=

أمدّنا المقدسي بطريق غير مباشر في حديثه بمعلومات سياسية غاية في الأهمية

من جهة أخرى فإن المقدسي قد أمدّنا - بطريق غير مباشر - في حديثه المذكور آنفًا بمعلومات سياسية غاية في الأهمية، فبيّن من خلال عدم مشاركة الخلافة العباسية في إنارة المسجد الحرام أن سلطتها لم تكن نافذة على حكام مكة خلال وجوده فيها، وفي الوقت نفسه أكّد ما أشار إليه سابقاً من أن نفوذ العبيديين (الفاطميين) كان سارياً آنذاك على أشراف مكة(١١٨).

من جانب آخر أشار المقدسي إلى مشاركة يمنية في الأعمال الخيرية بمكة، ويبدو أن خضوع بني زياد آنذاك للعبيديين، ودعوتهم لهم على المنابر اليمنية قد منح الحكومة الزيادية في اليمن فرصة المشاركة في بعض الأعمال الخيرية في مكة إبان نفوذ العبيديين فيها، ولا سيما في ظل قوة بني زياد السياسية والاقتصادية في اليمن إبان النصف الثاني من القرن الرابع الهجري(١١٩)، إضافة لاهتمامات وزير الزياديين - المعروف بالحسين بن سلامة - الخيرية، ورغباته المتنوعة لخدمة الحجاج؛ سواء على طرق الحج، أو في مكة والمشاعر المقدسة(١٢٠).

= أربع عشرة أسطوانة فأربع في دار الخلافة بسامراء". (أخبار مكة، ج ١، ص٢٨٦). وقال ناصر خسرو: "ويحيط بالكعبة من جميع جهاتها أساطين، ويربط كل عمودين غطاء خشبي في الأعلى مزين بنقوش وتهاويل كثيرة. ويتدلى من ذلك الغطاء سلاسل وحلقات يعلق عليها الشمع والمصابيح ليلاً، وتسمى بسكة المشاعل. والمسافة بين هذه المشاعل والكعبة نحواً من مئة وعشرين شبراً، وهي موضوعة بحيث لا تعيق الطائفين بالبيت". (سفر نامه، ص١٥٢).

(١١٨) كما ذكرنا سابقاً فإن المقدسي قد زار مكة حاجاً مرتين: إحداهما في سنة ٣٥٦هـ/ ٩٦٦م، والأخرى سنة ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م. (أحسن التقاسيم، ص٩٥). ويبدو أنه دون معلوماته هذه بعد زيارته الأخيرة، حيث كانت مكة خاضعة آنذاك للحكم العبيدي، عقب صراع مرير - كما ذكرنا سابقاً - بين العباسيين والعبيديين.

(١١٩) عن نفوذ الزياديين وثرائهم، وكذلك دعوتهم للعبيديين، انظر: ابن حوقل، صورة الأرض، ص٣٢.

(١٢٠) عمارة اليمني، تاريخ اليمن، المسمى "المفيد في أخبار صنعاء وزبيد". تحقيق، محمد علي الأكوع، ط٣، صنعاء: المكتبة اليمنية ١٩٨٥م، ص٦٧-٧٤.

وفي الوقت نفسه أفادنا المقدسي أيضاً - ومن خلال حديثه عن الإنارة في المطاف - بمعلومة ثمينة انفرد بها عن غيره، عندما أكّد مشاركة سلطان إقليم غرجستان - القابع في منطقة الجبال الواقعة شمال شرق مدينة هراة بخراسان - بأعمال خيرية في المسجد الحرام، وكان ملك هذه المنطقة المعروف بالشار، قد شُهر بالعدل حتى قال عنه المقدسي(١٢١): "وثَمّ عدل حقيقي، ونظر عزيزي، وبقية من سنن العُمَرين، ورسوم تقر بها العين، لا عمال ظلمة ولا أسباب مغيرة، ما يؤخذ من أغنيائهم فهو موضوع في فقرائهم، ومن جنى جناية فالعفو أو الحدُّ، ومع ذلك قوم سلماء صالحون من الطينة الأولى". كما قال عنه المقدسي أيضاً في موضع آخر(١٢٢): "طوبى لأهل الغرج بعدل الشار". ولا شك أن توجه ملك هذه المنطقة الديني، ورغبته في المشاركة في خدمة المسلمين، إضافة لمقدرته المادية في ظل ازدهار موارد بلاده الاقتصادية آنذاك، قد دفعه - بلا شك - للإسهام في خدمة المقدسات الإسلامية، والمشاركة بأعمال خيرية تذكر له فيها(١٢٣).

قبة زمزم وقبة الشراب

ولم يترك المقدسي - وهو يتحدث عمَّا رآه داخل المسجد الحرام - ذكر بئر زمزم، فقال عنها(١٢٤): "وقبة زمزم تقابل الباب والطواف بينهما"، وقد بيّن من خلال هذه الجملة المختصرة أن موقع بئر زمزم

---

(١٢١) أحسن التقاسيم، ص٢٤٣-٢٤٤.

(١٢٢) المصدر نفسه، ص٤٢.

(١٢٣) للمزيد من المعلومات عن منطقة غرجستان، انظر؛ الاصطخري، مسالك الممالك، ص٢٧١-٢٧٢؛ المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٢٤٣-٢٤٤؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص١٩٣-١٩٤؛ كي لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية. ترجمة. بشير فرنسيس وكوركيس عواد. ط٢، بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص٤٥٨.

(١٢٤) المصدر السابق، ص٧٥.

مقابل لباب الكعبة، ولكنه لم يذكر بُعدها عنه. كما أشار إلى أن عليها قبة، دون أن يصف لنا حال زمزم في وقته، وما عليها من بنايات أخرى، وغور مائها، وأطوالها، أو حتى كيفية وضع هذه القبة ومواصفاتها العمرانية. ورغم إشارته إلى أن الطواف يقع فيما بين بئر زمزم والكعبة، إلا أنه أيضاً لم يذكر المسافة بينهما(١٢٥).

ثم أشار المقدسي إلى موقع آخر مجاور لزمزم مشابه لها، وهو قبة الشراب المعروفة بسقاية العباس وصُفّة زمزم أيضاً(١٢٦)، فقال بعد أن ذكر قبة زمزم(١٢٧): "ومن ورائها قبة الشراب، فيها حوض كان يسقى فيه السويق والسكر في القديم". وبهذا فإن المقدسي قد أكّد من خلال ذلك أن بيت الشراب يقع خلف زمزم، وأن عليه بناء تغطيه قبة، وفيه بقايا حوض لسقاية الحجاج. كما أفادنا من خلال حديثه السابق أيضاً أن هذه السقاية كانت متوقفة في العهد الذي زار فيه

---

(١٢٥) قال التلمساني - الذي عاش في القرن الرابع الهجري - يصف بئر زمزم: "غور بئر زمزم من أعلاها إلى قاعها اثنان وسبعون ذراعاً، من وجه الماء إلى أعلى البئر أربعة وثلاثون ذراعاً، ومن وجه الماء إلى قاع البئر ثمانية ثلاثون ذراعاً لا يزيد ولا ينقص... ودور سعة البئر ثمانية عشر ذراعاً وذرع ضوئها ستة أذرع، وعليها قبة مربعة على ست عشرة سارية منقوشة كلها، وأربعة أركان مغلقة كلها بشراجب الحديد، ترجع إلى بُويب لطيف من ناحية سقاية زبيدة، قاعها مبسوط بالرخام، وسقفها مكنّس منقش من داخله في الساج، معمول من خارجه بالفسيفساء من أعلاه قبيبة سُوسنة من نحاس، يوقد على جميعها الشمع ليلة الختمة، وقبة زمزم هذه تقابل من الكعبة الملتزم، ما بين الركن الأسود وباب الكعبة، وبخرج ركن القبة عن ركن الكعبة". (وصف مكة والمدينة وبيت المقدس، ص٣٤٣). وقال ابن عبد ربه: "وزمزم بشرقي الركن الأسود بينهما مثل الثلاثين ذراعاً، وهي بئر واسعة، تُنُّورها من حجر مطوق أعلاه بالخشب، وسقفها قبو مزخرف بالفسيفساء على أربعة أركان تحت كل ركن منهما عمودان من رخام متلاصقان، وقد سد ما بين كل ركنين منهما بشرجب خشب، ورد إلى باب من جهة المشرق، وحول القبو كله مثل البرطلة". (العقد الفريد، ج٧، ص٢٨٦).

(١٢٦) الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص١٠٤-١٠٦؛ الفاكهي، أخبار مكة، ج٢، ص٨٣ -٨٥. ولمزيد من المعلومات عن هذه السقاية والقبة، انظر الصفحات المحددة من هذين المصدرين.

(١٢٧) أحسن التقاسيم، ص٧٥.

مكة، وهو في الوقت ذاته يؤكد - وبطريق غير مباشر - أن بيت الشراب كان يستعمل خلال النصف الثاني من القرن الرابع الهجري - وهي فترة وجود المقدسي في مكة - كمخزن لحفظ أوقاف الحرم، وإن لم يصرح بذلك، وهذا ما أشار إليه التلمساني(١٢٨)، وأكّد استمراره حتى أواخر القرن السادس الهجري ابن جبير أيضاً(١٢٩). من جانب آخر فإن عدم إشارة المقدسي لبيت اليهودية، واقتصاره على ذكر قبة زمزم وقبة الشراب فقط كأبرز بنايتين داخل المسجد، ليؤكد أن هذا البيت كان خرباً آنذاك، وهذا ما صرح به التلمساني عند حديثه عن هذا المكان(١٣٠).

مقام إبراهيم

أما المقام فقد توسع المقدسي قليلاً في الحديث عنه، فأتحفنا خلال ذلك بمعلومات غاية في الأهمية، حيث قال(١٣١): "والمقام بإزاء وسط البيت الذي فيه الباب، وهو أقرب إلى البيت من زمزم، يدخل في الطواف أيام الموسم". والمقدسي بهذا النص بيّن لنا موضع المقام بالنسبة للبيت الحرام، ووضح أنه أقرب إليه من بئر زمزم، كما أشار إلى وجوده ضمن نطاق المطاف، ومع تكاثر الناس أيام الحج وازديادهم يطوف بعض الناس من ورائه.

---

(١٢٨) وصف مكة والمدينة وبيت المقدس، ص٣٤٣.

(١٢٩) قال ابن جبير عن قبة الشراب: "وتلي قبة زمزم من ورائها قبة الشراب، وهي المنسوبة للعباس رضي الله عنه. وتلي هذه القبة العباسية على انحراف عنها قبة تنسب لليهودية. وهاتان القبتان مخزنان لأوقاف البيت الكريم من مصاحف وكتب وأنوار شمع وغير ذلك. والقبة العباسية لم تخل من نسبتها الشرابية؛ لأنها كانت سقاية الحاج. وهي حتى الآن يبرد فيها ماء زمزم". (الرحلة، ص٦٦).

(١٣٠) قال التلمساني بعد أن تحدث عمَّا رآه قائما في المسجد الحرام: "ليس في المسجد غير ذلك إلا أثر قبة اليهودية، وهو دور من رخام أسود بإزاء قبة الشراب، ارتفاعه من الأرض قدر الشبر". (وصف مكة والمدينة وبيت المقدس، ص٣٤٣). ويبدو أن بناءها قد أعيد فيما بعد حيث أشار ابن جبير - كما يتضح في الهامش السابق - أنها كانت ضمن مخازن أوقاف الحرم عندما زار مكة آنذاك.

(١٣١) أحسن التقاسيم، ص٧٦.

ثم وصف المقدسي الوضع الذي رأى عليه المقام ولونه وحجمه، فقال(١٣٢): "ويُكبُّ عليه صندوق حديد عظيم راسخ في الأرض، طوله أكثر من قامة، وله كسوة، ويرفع المقام في كل موسم إلى البيت، فإذا رد جعل عليه صندوق خشب، له باب يفتح أوقات الصلاة، فإذا سلم الإمام استلمه ثم أغلق الباب، وفيه أثر قدم إبراهيم عليه السلام، مخالفة، وهو أسود وأكبر من الحجر". والمقدسي بهذا الطرح قد أفادنا - رغم عدم إسهابه في بعض الجوانب - بمعلومات ثرة وغنية عن بعض الجوانب والتنظيمات المتعلقة بالمقام آنذاك، فوضّح أن هناك صندوقين خُصصا لتغطيته حسب الظروف والمناسبات، أحدهما مصنوع من الحديد والآخر من الخشب(١٣٣)، كما أشار إلى أن المقام مرفوع عن مستوى الأرض بما يعادل قامة إنسان، وبيّن أنه رأى على المقام كسوة(١٣٤).

إضافة إلى ذلك فقد وضّح المقدسي أن المقام غير ثابت في مكانه طوال السنة، حيث ذكر أنه ينقل إلى داخل البيت الحرام في الموسم. فضلاً عن ذلك فقد أكّد أن لصندوقه الخشبي بابًا يفتح للإمام عند أداء الصلاة، فإذا انتهى الإمام من أداء الفرض استلمه، ثم يغلق هذا الباب بعد ذلك(١٣٥). وقد رأى المقدسي داخل الصندوق أثر قدم إبراهيم عليه السلام بشكل متخالف(١٣٦).

---

(١٣٢) المصدر نفسه، ص٧٦.

(١٣٣) ذكر ابن جبير أن صندوق الحديد يوضع على المقام أثناء الموسم؛ ليتحمل الزحام، أما في الأيام العادية فيوضع عليه صندوق من خشب. (الرحلة، ص٦٣).

(١٣٤) انفرد المقدسي بذكر هذه الكسوة، فلم أجد فيما توافر لدي من مصادر أي إشارة لهذه الكسوة. وقد ذكر باسلامة أن العثمانيين كانوا يكسون المقام مثل كسوتهم للكعبة. (تاريخ عمارة المسجد الحرام، ص١٦٢).

(١٣٥) ذكر ابن جبير أن ذلك كان سائداً عند زيارته مكة في أواخر القرن السادس الهجري. (الرحلة، ص١٠٩).

(١٣٦) لم أجد فيما توافر لدي من مصادر من يؤيده فيما ذهب إليه في أن أثر القدمين متخالف.

أما عن لون حجر المقام وحجمه فقد قارنهما بالحجر الأسود، وأكد من خلال ذلك أنه أسود منه في اللون وأكبر منه أيضاً في الحجم(١٣٧).

المسعى

وكان مما تحدث عنه المقدسي المسعى، فقال(١٣٨): "ويقع السعي بين الصفا والمروة في السوق الشرقي، والعدو من قرنة المسجد إلى باب بني هاشم، وثمّ أميال خضر".

وقد بيّن من خلال ذلك أن الساعي بين الصفا والمروة لابد أن يجتاز السوق الشرقي المجاور للمسجد الحرام.

كما أشار إلى مواقع الأميال التي يرمل فيما بينها الحاج والمعتمر أثناء سعيه، فذكر أنها فيما بين زاوية المسجد الجنوبية الشرقية حتى باب بني هاشم، ووضح أن هذه الأميال قد طليت باللون الأخضر.

وقد بيّن المقدسي ما يقتضي التصاق الصفا بجبل أبي قبيس؛ وذلك عندما أشار إلى إطلالة هذا الجبل على المسجد الحرام، ووجود درج في الصفا يصعد منها إليه، فقال(١٣٩): "وأبو قبيس مطل على المسجد يصعد إليه من الصفا على درج"(١٤٠).

---

(١٣٧) للمزيد من المعلومات عن المقام، انظر: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص٣٩؛ الفاكهي، أخبار مكة، ج١، ص٤٨١-٤٨٣؛ ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج٧، ص٢٨٥-٢٨٦؛ التلمساني، وصف مكة والمدينة وبيت المقدس، ص٣٤١-٣٤٢؛ ناصر خسرو، سفر نامه، ص١٥١؛ ابن جبير، الرحلة، ص٦٢-٦٣؛ مؤلف مجهول، الاستبصار، ص٢٠؛ الفاسي، شفاء الغرام، ج١، ص٣٢٧-٣٣٨؛ باسلامة، تاريخ عمارة المسجد الحرام، ص١٣٥-١٦٧.

(١٣٨) أحسن التقاسيم، ص٧٦.

(١٣٩) المصدر نفسه، ص٧٦.

(١٤٠) قال التلمساني: "والصفا حجر أزرق عظيم، قد كسي بالدرج، ومن عليها يُصعد إلى أبي قبيس، عدد درجها ثلاثون درجة إلى موضع الوقوف منها ثماني عشرة درجة". (وصف مكة والمدينة وبيت المقدس، ص٣٤٥).

المصادر المائية

كشف المقدسي عن أنواع متعددة وأشكال مختلفة من مصادر المياه التي كانت تغذي مكة ومشاعرها المقدسة إبان النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، فكان مما ذكر في هذا الجانب ثلاث برك للماء في مكة نفسها، فقال(١٤١): "وبمكة ثلاث برك تملأ من قناة شقتها زبيدة(١٤٢) من بستان بني عامر". ويؤكد المقدسي - وهو يكتفي بذكر ثلاث برك فقط في مكة دون تحديد مكانها - فقدان مكة آنذاك لخدمات مجموعة أخرى من البرك المُعدة لحفظ المياه في عدد من أحيائها، فالمعروف أن زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور قد وضعت في سنة ١٩٤هـ/ ٨٠٩م بركة ضخمة في المعلاة بعد أن جلبت لها المياه من خارج مكة عبر قنوات خصصت لهذا الشأن، كما أن الخليفة العباسي المأمون - وعن طريق واليه على مكة صالح بن العباس - قد أنشأ سنة ٢١٠هـ/ ٨٢٥م خمس برك أخرى في أحياء مكة، تمت تغذيتها بالماء من بركة زبيدة بالمعلاة(١٤٣). من جانب آخر فإن معلومة المقدسي المذكورة آنفًا لتؤكد أيضاً استمرار عمل القناة التي شقتها زبيدة، إلا أن اقتصاره على ذكر بستان بني

---

(١٤١) أحسن التقاسيم، ص٧٦.

(١٤٢) هي أم جعفر بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور المعروفة بزبيدة زوج هارون الرشيد وأم ولده الأمين. كانت معروفة بالبذل على أهل العلم، والبر للفقراء والمساكين. ولها آثار خيرية كثيرة على طرق الحج العراقية، وكذلك بمكة والمدينة. توفيت ببغداد سنة ٢١٠هـ. (الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج١٤، ص٤٣٣).

(١٤٣) لمزيد من المعلومات عن هذه الأعمال، انظر؛ الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص٢٣١-٢٣٢؛ الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص١٥٢-١٥٥؛ العصامي، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، القاهرة: المطبعة السلفية، (د. ت)، ج٤، ص٩٦-٩٧. وخراب بعض البرك في مكة أكده ابن حوقل عندما قال وهو يتحدث عن المياه فيها: "وكانت أكثر مياههم من السماء إلى مواجن وبرك كانت بها عامرة، فخربت باستيلاء المتوالين على أموال أوقافها واستئثارهم بها". (صورة الأرض، ص٣٧).

عامر مصدرًا تأتي منه مياه مكة آنذاك(١٤٤) دون غيره من المواقع الأخرى التي أجرت زبيدة منها مشروعها الخيري قد يوحي بتعطل هذه العيون، وتوقفها عن العمل إبان وجود المقدسي بمكة، ولا سيما وأن بعض المؤرخين مثلاً قد أشار إلى انقطاعها في بعض الفترات التاريخية عن مكة(١٤٥). الجدير بالذكر أن الماء في قناة زبيدة كان - وفق ما ذكر المقدسي - من النوع الخفيف(١٤٦).

ورغم إجماع كثير من المصادر على عدم صلاحية مياه آبار مكة للشرب بل وصعوبة استساغتها(١٤٧) إلا أن المقدسي قد أشار إلى وجود عدد من

---

(١٤٤) ويقصد - كما يبدو - العين المعروفة بالمُشَاش؛ لأن هذه العين جهة عرفة، حيث بستان ابن عامر هناك. ويؤكد ذلك ياقوت الحموي الذي قال: المشاش وهو الذي يجري بعرفات، ويتصل إلى مكة. (معجم البلدان، ج٥، ص١٣١). وكانت عين المشاش هذه قد تعرضت للتخريب سنة ٢٦٨هـ/ ٨٨١م من قبل عيسى بن محمد المخزومي الذي أرسله صاحب الزنج للسيطرة على مكة آنذاك. (ابن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٣٤٢-٣٤٣). ويبدو أنه أعيد إصلاح هذه العين فيما بعد، كما يتضح من كلام المقدسي المذكور آنفاً.

(١٤٥) العصامي، سمط النجوم العوالي، ج٤، ص٩٦.

(١٤٦) أحسن التقاسيم، ص٩٥. وقد أشار إلى مواصفات الماء الخفيف بقوله: "فإن قال قائل: ومن أين علمت خفَّة المياه من ثقلها قيل له: بأربعة أشياء، إحداهن: أن كل ماء يبرد سريعاً فهو خفيف... والثانية أن الماء الخفيف يبطي تحلبه، ومن شرب ماءً ثقيلاً أسرع بوله. والثالثة الماء الخفيف يُشهي الطعام ويهضمه. والرابعة إذا أردت أن تعرف ماء بلد؛ فاذهب إلى البزازين والعطارين، فتصفح وجوههم فإن رأيت فيها الماء؛ فاعلم خفته على قدر ما ترى من نضارتهم، وإن رأيتها كوجوه الموتى، ورأيتهم مطامني الرؤوس، فعجل الخروج منها". (أحسن التقاسيم، ص٩٥-٩٦).

(١٤٧) ومن المصادر التي ناقضته في مسألة عذوبة مياه آبار مكة - على سبيل المثال - اليعقوبي، حيث يقول: "وشرب أهل مكة من آبار ملحة، ومن القنوات التي حفرتها أم جعفر بنت جعفر بن أمير المؤمنين المنصور". (البلدان، ص١٥٤). وناصر خسرو الذي قال عن مياه مكة خلال سنة ٤٤٢هـ/ ١٠٥٠م: "والمياه في مكة كلها شديدة الملوحة، ظاهرة المرارة حتى لا يمكن استساغتها، ولكن يوجد في مكة كثير من الأحواض والمصانع العظيمة التي بلغت تكاليف إنشاء بعضها عشرة آلاف دينار، وتملأ هذه الأحواض والمصانع من السنين الخصبة التي تجود فيها السماء بالماء. أما هذا العام فإن تلك الأحواض والمصانع قد جفت ولا قطرة ماء بها". (سفر نامه، ص١٤٠). وقال الإدريسي أيضاً بعد أن ذكر ما أجري لمكة بوساطة زبيدة: "ومياه مكة زعاق لا تسوغ لشارب، وأطيبها ماء بئر زمزم، وماؤه شروب غير أنه لا يمكن إدمان شربه". (نزهة المشتاق، ج١، ص١٤٠). أما الأزرقي والفاكهي فقد ذكرا عدداً من الآبار بمكة دون أن يشيرا إلى طبيعة مائها.

الآبار العذبة فيها، دون أن يحدد عددها أو مواقعها(١٤٨). ويبدو أن المقدسي يقصد تلك البئر العذبة والعظيمة التي تكفل بحفرها الوزير العباسي علي بن عيسى(١٤٩) عند الحناطين(١٥٠)، والتي وَسَّعَتْ على أهل مكة والوافدين إليها، وخففت عنهم مشقة الحصول على الماء آنذاك(١٥١).

أما زمزم فذكر المقدسي - وهو يتحدث عن المياه في إقليم الجزيرة العربية بصفة عامة - أنه وجد الماء فيها كريها أثناء حجه سنة ست وخمسين وثلاثمئة، وطيباً خلال حجته الثانية التي أداها بها سنة سبع وستين وثلاثمئة(١٥٢). ولا نغفل - ما دمنا في الحديث عن الآبار - مجموعة ذكر المقدسي أنه رآها في منى تؤدي دورها، ولكنه لم يحدد عدد هذه الآبار أو طبيعتها ونوعية مائها(١٥٣).

بيد أن هناك مصادر أخرى للمياه أشار إليها المقدسي في مكة ومشاعرها المقدسة، منها بعض المصانع(١٥٤) في منى(١٥٥)، وعدد من

---

(١٤٨) أحسن التقاسيم، ص٧٦.

(١٤٩) هو علي بن عيسى بن داود بن الجراح، ولد سنة ٢٤٥هـ/ ٨٥٩م. تربى تربية صالحة في أسرة علمية، تولى مناصب مهمة عدة في الدولة العباسية، أبرزها الوزارة التي تولّاها أكثر من مرة، كان أولها سنة ٣٠١هـ/ ٩١٣م. توفي سنة ٣٣٤هـ. لمزيد من المعلومات عنه، انظر: الصابئ، تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء. تحقيق، خليل المنصور. ط١، بيروت: دار الكتب العلمية ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، ص٢٠٧-٢٦٥؛ ضيف الله يحيى الزهراني، الوزير علي بن عيسى بن داود الجراح: إصلاحاته الاقتصادية والإدارية. ط١، مكة المكرمة: جامعة أم القرى ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

(١٥٠) الصابئ، تحفة الأمراء، ص٢١١.

(١٥١) الصابئ، تحفة الأمراء، ص٢١١؛ آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج٢، ص٢٣٠.

(١٥٢) أحسن التقاسيم، ص٩٥. ويعلل عدي مخلص ذلك بقوله: "ولعل ذلك متأت من تفاوت كمية الماء في البئر بين موسم الجفاف وموسم الأمطار، وتأثير ذلك على تركيز المواد المعدنية في مياه البئر". (المقدسي البشاري، ص٤٥). ولم أجد في المصادر المتاحة ما يوحي بنقص المياه أو زيادتها في مكة خلال الفترة المذكورة.

(١٥٣) أحسن التقاسيم، ص٧٨.

(١٥٤) المصانع، هي أحباس تتخذ للماء، واحدها مصنعة ومصنع. (ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص١٣٦).

(١٥٥) أحسن التقاسيم، ص٧٨.

البرك مع سقاية قرب جبل ثبير بالمزدلفة(١٥٦)، إضافة لمجموعة أخرى من السقايات والأحواض التي تغذيها قناة في عرفة، منها حوض أشاد المقدسي بكبر حجمه عند مصلاها(١٥٧). فضلاً عن وجود عدد من السقايات في التنعيم(١٥٨). ورغم هذه الإشارات المتعددة من المقدسي لنوعيات مختلفة من مصادر المياه في مكة، إلا أننا لم نر منه ما يروي غليل الباحث من وصف لهذه المنشآت أو ذكر لتاريخها أو تحديد أعدادها.

النشاط التجاري

لعل من حسن الطالع أن زيارة المقدسي لمكة جاءت في وقت شهدت فيه الأوضاع الأمنية في الحجاز نوعاً من الاستقرار والهدوء، فضلاً عن الانفتاح نحو مصر بخيراتها الاقتصادية المتعددة، وحكومتها العبيدية التي أولت الجانب التجاري آنذاك مزيداً من العناية، بعد أن وفرت السبل الكفيلة بنجاح التجارة الداخلية، وانفتحت على العالم الخارجي؛ لتزدهر الحركة التجارية في البحر الأحمر وتنمو التجارة في موانئه. وقد حفل كتاب أحسن التقاسيم بمعلومات اقتصادية ثرة ومتنوعة ولا سيما ما يتعلق منها بجوانب التجارة المختلفة، ويبدو أن المقدسي قد وجد من تطور التجارة في مكة آنذاك فرصة لإشباع ميوله ورغباته التجارية، فتحدث عن جوانبها بحس تجاري متمكن ودقيق.

١ - الأسواق

كانت الأسواق المنتشرة حول المسجد الحرام من أبرز ما تناوله المقدسي في حديثه عن النشاط التجاري في مكة، فقال في خضم حديثه عن المسجد(١٥٩): "وإليه الأسواق من الشرق والجنوب"، وفي

---

(١٥٦) المصدر نفسه، ص٧٩.

(١٥٧) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(١٥٨) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(١٥٩) المصدر نفسه، ص٧٦.

تسميته لبعض أبواب المسجد الحرام تبيان لبعض هذه الأسواق، وإفصاح عن السلع والحرف الموجودة فيها، وكان مما ذكر باب الزياتين وباب البزازين في الجهة الشرقية، وباب الدقاقين وباب التمّارين، وباب زقاق الشطوي في الجهة الجنوبية(١٦٠). كما أشار المقدسي - وهو يتحدث عن المشاهد بمكة - إلى أبرز سوقين شرق المسجد الحرام، هما سوق البزازين وسوق العطارين، فقال(١٦١): "ودار الأربعين بالبزّازين(١٦٢)، ودار خديجة خلف العطارين". كما ألمح أيضاً إلى هذين السوقين دون أن يصرح باسمهما، وذلك عندما قال(١٦٣): "ويقع المسعى بين الصفا والمروة في السوق الشرقي، والعدو من قرنة المسجد إلى باب بني هاشم، وثمّ(١٦٤) أميال خضر، وخلف هذين السوقين آخران إلى آخر المعلاة بينهما منافذ"(١٦٥). أما السوقان الآخران اللذان أشار إليهما المقدسي في هذا النص فقد وضّح أن أحدهما هو سوق الردم(١٦٦)، والآخر سوق الليل، وذلك من خلال

---

(١٦٠) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(١٦١) المصدر نفسه، ص٩٦.

(١٦٢) والمقصود بها دار الأرقم بن أبي الأرقم، كما سيأتي بيان ذلك عند ذكر المشاهد بمكة في آخر البحث.

(١٦٣) المصدر نفسه، ص٧٦.

(١٦٤) قال ابن منظور: ثَمَّ في المكان: إشارة إلى مكان منزاح عنك. وثَمَّ: بمعنى هناك للتبعيد بمنزلة هنا للتقريب. (لسان العرب، ج١، ص٥٠٨).

(١٦٥) يقول ابن جبير موضحاً الأسواق الشرقية من المسجد الحرام: "وما بين الصفا والمروة مسيل هو اليوم سوق حفيلة بجميع الفواكه وغيرها من الحبوب وسائر المبيعات الطعامية، والساعون لا يكادون يخلصون من كثرة الزحام، وحوانيت الباعة يميناً وشمالاً، وما للبلدة سوق منتظمة سواها إلا البزازين والعطارين، فهم عند باب بني شيبة تحت السوق المذكورة وبمقربة تكاد تتصل بها". (الرحلة، ص٨٥).

(١٦٦) الردم: هو ما وضع لصرف السيول عن بعض الأماكن. وقد وضع في مكة في عصري الخلفاء الراشدين والأمويين أكثر من ردم. انظر؛ الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص١١٢-١١٤. ورغم أن المقدسي لم يوضح اسم الردم الذي فيه السوق المذكور، إلا أن سياق الكلام يبيّن أن المقصود ردم عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الذي يقع في المنطقة التي أشار إليها المقدسي.

قوله(١٦٧): "فمن دخل من العراق وأراد باب بني شيبة فليتيامن، وليسلك سوق الردم، ولا يسلك سوق الليل".

إن معلومات المقدسي المذكورة آنفًا لتؤكد لنا كثرة الأسواق الدائمة، وانتشارها بشكل واسع حول المسجد الحرام، كما تفيدنا في الوصول إلى طبيعة مبيعاتها، فهناك المتخصص منها؛ كسوق العطارين، وسوق البزازين، وسوق الزياتين، وسوق الدقاقين، وسوق التمّارين، وسوق الأقمشة والملابس (الشطويين). ومنها ما هو عام - كما يبدو - كسوق الردم، وسوق الليل، الذي أكّد الأزرقي احتواءه على مجموعة من الأسواق المختلفة والسلع المتنوعة(١٦٨).

من جانب آخر فإن المقدسي، ورغم ما ذكر من معلومات عن انتشار الأسواق في مكة، فإنه لم يشر لأسواق أخرى كانت في مكة خلال القرن الثالث الهجري(١٦٩). ويعود عدم ذكر المقدسي لهذه الأسواق - من وجهة نظرنا - إلى سببين؛ الأول، أنه لم يتطرق لها رغبة منه في الاختصار وعدم الإطالة، تمشياً مع المنهج الذي رسمه لكتابه. والثاني - وهو ما نميل إليه - أن هذه الأسواق قد اندثرت خلال القرن الرابع الهجري، عقب ما تعرضت له مكة من مشاكل سياسية عدة في النصف الأول من هذا القرن، والتي سبق وأن ألمحنا لها قبل ذلك.

الجدير بالذكر أن المقدسي أشار إلى سوق منى الذي يعقد كل موسم، وأكّد أن هذا السوق من أضخم أسواق الجزيرة العربية وأبرزها(١٧٠). كما بيّن أيضاً أن في منى "قياسير(١٧١) وحوانيت حسنة البناء"(١٧٢).

---

(١٦٧) أحسن التقاسيم، ص٧٦.

(١٦٨) أخبار مكة، ج٢، ص٢٣٩.

(١٦٩) عن هذه الأسواق، انظر؛ عبدالعزيز السنيدي، الحياة العلمية في مكة خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين، ط١، الرياض ١٤٢٤هـ، ص٤٠-٤٣.

(١٧٠) أحسن التقاسيم، ص٩١.

(١٧١) وهي أسواق مغلقة تقفل مداخلها خلال الليل، وتحفظ فيها البضائع الثمينة. (عدي يوسف مخلص، المقدسي البشاري، ص١٨٩).

(١٧٢) أحسن التقاسيم، ص٧٨-٧٩.

٢ - البضائع والسلع

لم يقتصر المقدسي على ذكر أسماء الأسواق، بل أتحفنا بمعلومات مختلفة عما يُسَوَّق فيها من سلع وبضائع متنوعة، فأشار إلى شهرة مكة بإنتاج السنا(١٧٣). وذكر أن الفواكه كانت تجلب إلى أسواق مكة المكرمة من الطائف، وأن أكثر الموجود في الأسواق المكية منها(١٧٤). وأشار إلى الجهات التي تجلب منها الملابس والثياب إلى مكة المكرمة، فقال وهو يتحدث عما يحمل من إقليم الديلم من البضائع(١٧٥): "ومن طبرستان الأكسية التي تفضل على الفارسية وطيالسة وثياب الخيش المحمولة إلى الآفاق، ويباع منها بمكة شيء كثير صغار الدراهم وكبار تسمى بالغرب المكية واللفائف". إضافة إلى الثياب الشطوية التي تجلب للحجاز من مدينة شطا في مصر، ولها سوق خاص بمكة المكرمة(١٧٦). من جانب آخر بيّن المقدسي أن مصر كانت أيضاً تمد بلاد الحجاز ببعض المواد الغذائية، فقال عن مدينة المَشْتُول المصرية(١٧٧): "المَشْتُول: كثيرة الطواحين، ومنها يحمل أكثر ميرة الحجاز من الدقيق والكعك، وأحصيت في وقت من السنة فإذا هو يبلغ ثلاثة آلاف حمل جمل في كل أسبوع، كلها حبوب ودقيق". كما قال مشيراً إلى أهمية مصر الاقتصادية لبلاد الحجاز(١٧٨): "وبخيراته تعمر الحجاز، وبأهله يبهج موسم الحاج"، وقال أيضاً(١٧٩): "والحجاز مع أهلها عياله".

---

(١٧٣) المصدر نفسه، ص٩٣. وقد ذكر البكري أن السنا الحرمي يصدر من مكة إلى الآفاق الأخرى. (المسالك والممالك، ج١، ص٣٦٢).

(١٧٤) أحسن التقاسيم، ص٨٠.

(١٧٥) المصدر نفسه، ص٢٨٢.

(١٧٦) المصدر نفسه، ص٧٦، ٩٨.

(١٧٧) المصدر نفسه، ص١٦٦.

(١٧٨) المصدر نفسه، ص١٦٥.

(١٧٩) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

ومن ناحية أخرى فقد أفاد المقدسي حين نسب بعض أبواب المسجد الحرام للسلع الموجودة حولها - كما أشرنا إلى ذلك سابقاً - في الوصول للكثير من البضائع الاستهلاكية المتوافرة في أسواق مكة، ومنها - على سبيل المثال - التمور، والتوابل، والزيوت، والبز، والأقمشة، والملابس، وأدوات العطارة، وغيرها.

الجدير بالذكر أن المقدسي قد أكّد أن ميناء جدة - الذي ازدهر بشتى التجارات آنذاك - كان بمثابة المصدر الرئيس لتمويل الأسواق المكية بما يرد إليه عن طريق البحر من بضائع مختلفة من عدد من الأقاليم والأمصار، حتى إنه وصف جدة بخزانة مكة(١٨٠).

٣ - الاستثمار العقاري

أوصلنا حس المقدسي، واهتمامه التجاري إلى نشاط مارسه المكيون آنذاك عندما أشار إلى استثمارهم العقاري لمنشآتهم العمرانية بقوله(١٨١): "ومستغلاتهم الدور". وتؤكد هذه المعلومة - بالإضافة لأهميتها وقيمتها الاقتصادية - أمراً مهماً أحدث بلا شك تغيراً اجتماعياً واقتصادياً في المجتمع المكي، ألا وهو بدء استغلال المكيين تأجير الدور - الذي حرموا منه فيما قبل - للحجاج والمعتمرين وغيرهم، وذلك منذ وقعت حادثة القرامطة، وتقاعس العباسيون عن بذل الأموال والأعطيات التي دأبوا على منحها لأهل مكة(١٨٢).

٤ - المكاييل والموازين

وفي جانب اقتصادي آخر أشار المقدسي إلى المكاييل والموازين المنتشرة آنذاك، حيث بيّن المكاييل المستعملة منها في الجزيرة العربية

---

(١٨٠) المصدر نفسه، ص٨١.

(١٨١) المصدر نفسه، ص٧٦.

(١٨٢) سليمان عبدالغني مالكي، مرافق الحج والخدمات المدنية للحجاج في الأراضي المقدسة منذ السنة الثامنة من الهجرة حتى سقوط الخلافة العباسية، ص٧٦-٧٨.

بشكل عام، ووضح مقاديرها، قائلاً(١٨٣): "ومكاييل هذا الإقليم الصاع والمد والمكوك، فالمد ربع الصاع، والصاع ثُلُث المكوك، هذا بالحجاز وهي مختلفة، والمستعمل منها يزن خمسة أرطال وثلثاً". وقد ألمح المقدسي من خلال ذلك إلى أمر معروف بين الناس، وهو اختلاف مقادير هذه المكاييل بين إقليم وآخر. كما بيّن في نهاية حديثه أن الصاع المستعمل في الحجاز في وقته يزن خمسة أرطال وثلثاً، وهذا ما كان عليه فقهاء الحجاز(١٨٤). كما ذكر المقدسي وحدة الوزن المستخدمة في مكة، فقال(١٨٥): "وأرطالهم بمكة هو المنّ المعروف في جميع بلاد الإسلام غير أنهم يسمونه رطلاً"(١٨٦).

٥ - العملات المتداولة

أما عن العملات المتداولة في الجزيرة العربية المستخدمة في المعاملات التجارية فيها، فقد أكّد المقدسي أنها مختلفة بين منطقة وأخرى. وأشار إلى بعض النقود المحلية المتداولة بمكة، فقال(١٨٧): "لأهل مكة المطوَّقة وهي والعثَّرية(١٨٨) ثلثا المثقال(١٨٩) تؤخذ كدراهم اليمن عدداً، وتفصل العثرية حتى ربما كان بينهما دُريهم".

---

(١٨٣) أحسن التقاسيم، ص٩٣.

(١٨٤) سامح عبدالرحمن فهمي، المكاييل في صدر الإسلام، ص٢٦.

(١٨٥) المصدر السابق، ص٩٤.

(١٨٦) قال ابن المجاور عن الرطل: "والرطل مئة وثلاثون درهماً وهو ستة أواق يحسب كل أوقية أحد وعشرون درهماً وثلث، وبه يباع جميع الحوائج والعطر". (صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز، المسمى "تاريخ المستبصر". تحقيق، أوسكار لوفغرين، ليدن: مطبعة بريل ١٩٣٦م، ص١٢).

(١٨٧) أحسن التقاسيم، ص٩٤.

(١٨٨) وهي نسبة لمدينة عثر. (محمد أحمد العقيلي، تاريخ المخلاف السليماني. مراجعة وإشراف، حمد الجاسر. ط٢، الرياض: دار اليمامة ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ص١٦٨). ولم أجد - في المصادر المتوافرة لدي - أي معلومات أخرى تفيد حول هذه العملة.

(١٨٩) يساوي المثقال (٤,٢٥) غراماً، والدرهم يساوي سبعة أعشار المثقال؛ أي: كل عشرة دراهم سبعة مثاقيل. وكان يطلق على الدينار لفظ المثقال. (عبدالقديم زلوم، الأموال في دولة الخلافة. ط١، بيروت: دار العلم للملايين ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص٢٠٥).

وعن الدراهم المتداولة في مكة قال المقدسي(١٩٠): "والدراهم المستعملة في الإقليم تسمى بمكة المحمدية(١٩١). ولأهل مكة المزبقَّة أربعة وعشرون بمطوق ضعف أختمي تبطل يوم السادس من ذي الحجة إلى آخر الموسم". وقد بيّن لنا المقدسي من خلال ذلك أن المطوقة تعادل أربعة وعشرين درهماً من المزبقَّة، كما ألمح في معلومته هذه إلى موضوع مهم، وهو توقف التعامل بهذه الدراهم خلال موسم الحج. ويبدو أن رغبة المكيين في الحصول على بعض العملات الصعبة المتداولة في العالم الإسلامي آنذاك عن طريق الحجاج القادمين إليها، فضلاً عن الحيلولة دون تسرب عملتهم الخاصة إلى الخارج للحفاظ على قيمتها، كان سبباً في توقف التعامل التجاري بهذه العملة(١٩٢).

٦ - المكوس والضرائب

ألقى المقدسي الضوء على المكوس والضرائب التي تفرض على البضائع القادمة إلى مكة، فقال عن مقدار ما يؤخذ عن بعض الواردات إلى ميناء جدة(١٩٣): "والضرائب والمكوس يؤخذ بجدة من كل حمل حنطة نصف دينار وكيل من فرد الزاملة، وعلى سفط الثياب الشطوي ثلاث دنانير، ومن سفط الدبيقي ديناران، وحمل الصوف ديناران". كما كانت الضرائب والمكوس تؤخذ أيضاً في ميناء السرين

---

(١٩٠) أحسن التقاسيم، ص٩٤.

(١٩١) بحثت جاهداً في عدد من المصادر والمراجع التي عُنيت بالنقود والعملات فلم أجد لها ذكراً في ثناياها. ويقول أحمد الزيلعي عنها: "ونحن لا نعرف بالضبط كيف جاءت هذه التسمية، والظاهر أنها نسبة إلى محمد بن سليمان الذي ثار بمكة سنة ٣٠١هـ، فلعلها أن تكون قد سكت في عهده، أو أن تكون قد ضربت في عهد الأمراء الموسويين الذين جاؤوا بعده، وسميت المحمدية تيمناً باسمه". (مكة وعلاقاتها الخارجية، ص١٦١).

(١٩٢) أحمد الزيلعي، مكة وعلاقاتها الخارجية، ص١٦١؛ عدي يوسف مخلص، المقدسي البشاري، ص٢٧٥.

(١٩٣) أحسن التقاسيم، ص٩٨.

التابع لإمارة مكة(١٩٤). هذا بالإضافة لضرائب ورسوم أخرى ذكر المقدسي أنها عن كل حمل نصف دينار، تؤخذ على التجارات الداخلية عبر مرصدين وضعا ما بين مكة وجدة؛ أحدهما في القرين، والآخر في بطن مَرّ(١٩٥).

الجدير بالذكر أن المقدسي قد أشار في حديثه عن التجارات والأموال في الجزيرة العربية أن أموالها عشرية، وليست خراجية(١٩٦). كما نقل عن قدامة بن جعفر أن مقدار ما يؤخذ من بلاد الحرمين مئة ألف دينار سنوياً(١٩٧). ورغم أن المقدسي لم يحدد وقت إرسال هذه الأموال لدار الخلافة، إلا أنها - فيما يبدو - كانت قبل القرن الرابع الهجري، حيث شهد هذا القرن تغيرات سياسية ومشاكل حدّت كثيراً من سلطة العباسيين على الحجاز.

الحالة الاجتماعية

أمدّنا المقدسي عبر مشاهداته التي دونها خلال رحلته بمعلومات متنوعة كشفت لنا الكثير من الجوانب المختلفة - التي لم يُسلط عليها الضوء - عن الحياة الاجتماعية في مكة خلال القرن الرابع الهجري. وكان مما أشار إليه المقدسي اللباس الموجود في مكة، فقال(١٩٨): "والرسوم في هذا الإقليم لبس الوزر والأزر بلا قميص إلا القليل". ويبدو أن المقدسي في إشارته لهذا النوع دون غيره من الألبسة المعروفة آنذاك قد اقتصر على ما هو سائد ومشهور منها؛ وهو الإزار(١٩٩).

---

(١٩٤) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(١٩٥) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(١٩٦) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(١٩٧) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(١٩٨) المصدر نفسه، ص٩٤.

(١٩٩) وكان هذا النوع من الألبسة هو السائد والمشهور في مكة لدى كثير من الرجال والنساء في الحاضرة والبادية منذ عصور الإسلام الأولى. (إلهام أحمد البابطين، الحياة الاجتماعية بمكة منذ ظهور الإسلام حتى نهاية العصر الأموي. ط١، الرياض ١٤١٩هـ، ص٣٢١-٣٢٥). وانظر هذا المرجع لمزيد من المعلومات عن الألبسة في مكة.

من جانب آخر فقد ذكر المقدسي أن أكثر الثياب المنتشرة في مكة كانت من النوع القطني(٢٠٠). وفي إشارته لتوريد الثياب الشطوية إلى ميناء جدة(٢٠١)، وكذلك وجود سوق لها في مكة(٢٠٢)، دليل على سعة انتشارها آنذاك في أوساط المجتمع المكي. ونظراً لعدم تباعد درجات الحرارة كثيراً في مكة خلال فصول السنة فإن نوعية لباس المكيين - حسب قول المقدسي - ثابتة لا تتغير خلال هذه الفصول(٢٠٣). وفي جانب آخر وضح المقدسي أيضاً أن أهل مكة اعتادوا لبس النعال(٢٠٤).

أما معيشة الناس في مكة فرغم أن المقدسي لم يُشر إليها مباشرة، وإنما تحدث عن طبيعتها في الجزيرة العربية، عندما ذكر أن الناس فيها يتقوتون باليسير من الطعام، وأن معيشتهم تعتمد بشكل رئيس على التمر(٢٠٥)، إلا أننا ومن خلال ما ذكر المقدسي من الأسواق المكية وتخصصاتها - والتي تحدثنا عنها قبل ذلك - نستطيع أن نقف على الكثير من المواد المستهلكة في مكة آنذاك.

من ناحية أخرى بيّن المقدسي اعتماد أهل مكة على اللحوم المجففة من ذبائح أيام النحر نوعًا من الغذاء الذي يعتمد عليه المكيون كثيراً، ويستمر معهم بعض أيام السنة(٢٠٦). والحال نفسها تنطبق على الفواكه التي اقتصر توافرها في الأسواق المكية على فصل الصيف، في حين خلت منها هذه الأسواق - على حدّ قول المقدسي - في

---

(٢٠٠) أحسن التقاسيم، ص٩٠.

(٢٠١) المصدر نفسه، ص٩٨.

(٢٠٢) المصدر نفسه، ص٧٦.

(٢٠٣) المصدر نفسه،ص٩٠.

(٢٠٤) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٢٠٥) المصدر نفسه، ص٩٩.

(٢٠٦) المصدر نفسه، ص٩٠.

فصل الشتاء(٢٠٧). أما المشروبات فقد أكّد المقدسي انتشار شرب السويق في مكة عندما ذكر أنه تناوله فيها(٢٠٨).

أما الأمراض فقد أكّد المقدسي - وهو يتحدث عن الجزيرة العربية - أنه لم ير مجذوما، وأشار إلى أن الله - سبحانه وتعالى - قد حفظ المكيين من هذا المرض حيث نقل تفسير عبدالله بن عباس لقوله تعالى: "وآمنهم من خوف"(٢٠٩)، إنه خوف الجذام(٢١٠). وذكر أن من أهم أسباب الأمراض في مكة أكل الباذنجان، حيث أشار إلى المضار بإقليم الجزيرة العربية، فقال عن الموجود منها بمكة: "بمكة باذنجان يمرض"(٢١١).

وأشار المقدسي إلى بعض العادات والتقاليد المنتشرة في مكة، فقال عن طريقتهم في الاحتفال بعيد الفطر(٢١٢): "وبمكة تنصب القباب ليلة الفطر، ويزين السوق بين الصفا والمروة، ويضربون الدبادب(٢١٣) إلى الصباح، وإذا صلوا الغداة أقبلن الولائد مزينات بيدهن المراوح يطفن بالبيت". كما أعجب المقدسي بتأنق المكيين

---

(٢٠٧) المصدر نفسه، والصفحة نفسها. قال الزهري عن المعيشة في مكة: "فأما ما يأكلون فأكثر طعامهم القطاني، والقمح عندهم قليل وكذلك الشعير، وأكثر عيشهم اللبن والتمر ولحوم الإبل والجواميس، وكذلك فواكههم الموز وقليل من العنب. وأكثر ثمارهم النخل". (كتاب الجغرافية. تحقيق، محمد حاج صادق، بور سعيد: مكتبة الثقافة الدينية، (د. ت)، ص٣٦).

(٢٠٨) أحسن التقاسيم، ص٣٨.

(٢٠٩) سورة قريش، آية ٤.

(٢١٠) أحسن التقاسيم، ص٩٠. قال النسفي في تفسير ذلك: "وآمنهم من خوف عظيم وهو خوف أصحاب الفيل، أو خوف التخطف في بلدهم ومسايرهم، وقيل: كانوا قد أصابتهم شدة حتى أكلوا الجيف والعظام المحرقة، وآمنهم من خوف الجذام؛ فلا يصيبهم ببلدهم. وقيل ذلك بدعاء إبراهيم عليه السلام" . (تفسير النسفي، بيروت: دار الكتاب العربي، (د. ت)، ج٤، ص٣٧٨).

(٢١١) أحسن التقاسيم، ص٩٦.

(٢١٢) المصدر نفسه، ص٩٥.

(٢١٣) قال ابن منظور، الدبادب: الكثير الصياح والجلبة. والدبداب: الطبل. (لسان العرب، ج٣، ص١٣١٥).

وجمال زيهم، وطريقة خروجهم للحج، وشبههم في ذلك بالعراقيين، فقال(٢١٤): "ولا يرى أحسن من زي أهل مكة في خروجهم إلى الحج في أن أحدهم ينوبه في ذلك ما ينوب العراقي".

وبيّن خلال حديثه عن مدينة الطائف أنها كانت بمثابة متنزه للطبقة الراقية من المكيين عندما يشتد الحر في فصل الصيف، فقال(٢١٥): "إذا تأذى ملوك مكة بالحر خرجوا إليها". كما استدل في الموضوع نفسه بتفسير عبدالله بن عباس رضي الله عنهما لقوله تعالى: ﴿إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾(٢١٦)، قال: كانوا يشتون بمكة، ويصيفون بالطائف(٢١٧).

وأخيراً، ومن خلال ما أدلى به المقدسي من معلومات مختلفة ومتناثرة عن مكة وأهلها، نستطيع أن نصل إلى حقيقة ثابتة تؤكّد أن التجارة بأشكالها المختلفة ونشاطاتها المتعددة قد ظفرت بنصيب وافر، واحتلت مكانة لا تدانى في مجال النشاط السكاني في مكة.

جوانب فكرية وعلمية

تحدث المقدسي عن بعض الجوانب الفكرية والعلمية في الجزيرة العربية بوجه عام وفي مكة على وجه الخصوص، فأطلعنا - رغم قلة ما ذكر في هذا الجانب - على معلومات تميز بها عن غيره من المصادر. وكان مما أشار إليه في هذا الموضوع، ضعف الحياة العلمية

---

(٢١٤) أحسن التقاسيم، ص٩٥.

(٢١٥) المصدر نفسه، ص٨٠.

(٢١٦) سورة قريش، آية ٢.

(٢١٧) أحسن التقاسيم، ص٩٠. والمعروف عند كثير من المفسرين أن رحلة الشتاء المكية كانت لليمن، ورحلة الصيف كانت إلى بلاد الشام. انظر؛ (النسفي، تفسير النسفي، ج٤، ص٣٧٨؛ ابن كثير، تفسير ابن كثير، نشر، أسعد طرابزوني الحسيني، (د.ن)، (د.ت)، ج٤، ص٥٥٤؛ الشوكاني، فتح القدير، بيروت: دار الفكر ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ج٥، ص٤٩٨-٤٩٩). وقد ذكر الشوكاني رواية ابن عباس التي أشار إليها المقدسي، ولكنه رجح الرواية التي تنص على أن رحلات المكيين كانت للشام واليمن. وللمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع انظر: عبد العزيز صالح الهلابي: ما حقيقة رحلة قريش في الصيف إلى الشام؟، مجلة الدارة، ع٤، س٢٢، ١٤١٧هـ، ص٦٥-٩٤.

في إقليم الجزيرة العربية عندما وصفه بأنه " قليل الفقهاء والمذكرين والقراء"(٢١٨). والمقدسي في كشفه هذا يؤكد التقلص الفعلي لمناشط الحياة العلمية المختلفة في مكة آنذاك عقب المشاكل السياسية التي عانت منها مكة – والتي ألمحنا إليها في حديث سابق – بعد أن شهد هذا الجانب تطوراً ملحوظا قبل القرن الرابع الهجري(٢١٩). وبطبيعة الحال فإن ذلك لا يعني انعدام المهتمين بالعلم خلال النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، فالمقدسي نفسه أشار إلى وجود بعض القراء في مكة، وبيّن أنهم ما زالوا متمسكين بقراءة ابن كثير(٢٢٠)، ومنهم من هو على قراءة أبي عمرو بن العلاء(٢٢١)، ووضح أن على هذه القراءة السواد الأعظم من سكان إقليم الجزيرة العربية(٢٢٢).

يؤكد المقدسي التقلص الفعلي لمناشط الحياة العلمية المختلفة في مكة عقب المشاكل السياسية

---

(٢١٨) أحسن التقاسيم، ص٩٠.

(٢١٩) للاطلاع على واقع الحياة العلمية آنذاك، انظر؛ عبدالعزيز بن راشد السنيدي، الحياة العلمية في مكة خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين.

(٢٢٠) هو عبدالله بن كثير الدَّاري، إمام المكيين في القراءة، وأحد السبعة القراء المعروفين. قَرَأَ على عبدالله بنَ السائب المخزومي ومجاهد بن جبر وآخرين، كما دَرَسَ الحديث على بعض الصحابة والتابعين، وتتلمذ عليه عدد كبير من طلبة العلم في مكة وغيرها. توفي سنة ١٢٠هـ/ ٧٣٧م، وقيل: سنة ١٢٢هـ/ ٧٣٩م، وقيل غير ذلك. (ابن مجاهد، السبعة في القراءات، تحقيق، شوقي ضيف، ط٢، القاهرة: دار المعارف ١٤٠٠هـ، ص ٦٤-٦٦؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء. مجموعة من المحققين، إشراف شعيب الأرناؤوط، ط٧، بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ج٥، ص٣١٨-٣٢٢).

(٢٢١) التميمي البصري، شيخ القراء، وعالم باللغة العربية. اختلف في اسمه، وأشهر ما قيل في ذلك زبان. برز في الحروف، وفي النحو، وتصدر للإفادة مدة. واشتهر بالفصاحة والصدق وسعة العلم. توفي سنة ١٥٤هـ/ ٧٧٠م، وقيل ١٥٧هـ/ ٧٧٣م. (الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٦، ص٤٠٧-٤١٠).

(٢٢٢) أحسن التقاسيم، ص٩١. الجدير بالذكر أن المقدسي أشار إلى القراءات المستعملة في وقته في العالم الإسلامي، وذكر منها حروف أهل الحجاز، وهن أربع؛ قراءة نافع وابن كثير وشيبة وأبي جعفر. ولكنه لم يؤكد انتشار جميع هذه القراءات في مكة، واقتصر فقط على ما ذكرنا. (المصدر السابق، ص٤٦).

ورغم تمسك المكيين بقراءة ابن كثير واعتمادها قراءة رسمية لإمام الحرم طوال الفترة التاريخية السابقة، إلا أن المقدسي أشار - وهو يؤكد ما ذكرنا - إلى بدء تخلي أئمة الحرم عن ذلك عندما قال(٢٢٣): "وسمعت بعض صدور القراء بمكة يقول: ما رأينا ولا سمعنا أن أحداً أمَّ خلف المقام بغير قراءة ابن كثير إلا في هذا الزمان".

وبيّن المقدسي أن اللغة العربية هي - بطبيعة الحال - لغة أهل الجزيرة العربية بصفة عامة(٢٢٤)، كما وضّح أن لغة هذيل - وهي من أبرز القبائل التي تقطن مكة وما حولها - أصح اللغات في الجزيرة العربية، وذلك بقوله(٢٢٥): "وجميع لغات العرب موجودة في بوادي هذه الجزيرة إلا أن أصحها لغة هذيل ثم النجديين ثم بقية الحجاز إلا الأحقاف فإن لسانهم وحش". وكان المقدسي قد أكدّ أن الفصاحة خاصية تميز بها أهل مكة عن غيرهم من أهل الأمصار الإسلامية الأخرى(٢٢٦).

أما عن المذهب الديني السائد في مكة فقد ذكر في حديثه عن المذاهب المنتشرة في الجزيرة العربية أن أهل مكة على المذهب السني(٢٢٧)، وأشار إلى أن العمل فيها كان على مذهب الإمام مالك بن أنس(٢٢٨). هذا مع وجود طائفة على المذهب الشيعي في مكة، تتمثل في فئة الخياطين(٢٢٩). من جانب آخر فقد نقل المقدسي مقولة عمَّها محمد بن عبدالله العباسي على دعاته بيّن من خلالها أن ميل أهل مكة والمدينة وولاءهم كان لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما(٢٣٠).

---

(٢٢٣) أحسن التقاسيم، ص٩١.

(٢٢٤) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٢٢٥) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٢٢٦) المصدر نفسه، ص٤١.

(٢٢٧) المصدر نفسه، ص٩٠.

(٢٢٨) المصدر نفسه، ص٩١.

(٢٢٩) المصدر نفسه، ص٩٦.

(٢٣٠) المصدر نفسه، ص٢٣٤.

وتحدث المقدسي عن نوعية المصاحف المنتشرة في بلاد الحجاز، فقال(٢٣١): "رأيت المصاحف القديمة بالشام ومصر والحجاز المنسوبة إلى عثمان، فإذا هي لا تخالف حروف ابن عامر(٢٣٢) في شيء".

المشاعر المقدسة

أولاً: منى

عرض المقدسي صورة جغرافية وحضارية أفادت في الوصول لمعلومات متنوعة عنها إبان النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، وكان مما تطرق إليه في هذا الجانب تحديد موقعها؛ فبيّن أنها داخلة ضمن حدود الحرم، وتبعد عن مكة مسافة فرسخ(٢٣٣)، وأكّد وقوعها بين جبلين يطلان عليها(٢٣٤)، وأن طولها ميلان فقط(٢٣٥). كما وصف الوضع الذي كانت عليه منى آنذاك، فأشار إلى أنها عبارة عن شارعين (شعبين) فيهما عدد من الأزقة، وذكر أن فيها مسجدين؛ مسجد الخيف في الشارع الأيمن من شوارع منى، والآخر مسجد الكبش بقرب العقبة(٢٣٦). وبين مواقع الجمرات الثلاث، وقال: إن جمرة العقبة على رأس منى نحو مكة، والثالثة عند مسجد الخيف، والوسطى بينهما(٢٣٧). إضافة إلى ذلك فقد ذكر المقدسي وجود عدد من الأسواق في منى، وبيّن لنا طبيعتها ووصف مواد بنائها،

---

(٢٣١) المصدر نفسه، ص٩٤.

(٢٣٢) هو عبدالله بن عامر اليحصبي. أحد علماء التابعين، وقاضي دمشق في خلافة الوليد بن عبدالملك. وهو من القراء السبعة المشهورين. توفي سنة ١١٨هـ/ ٧٣٦م. (الداني، التيسير في القراءات السبع. ط٣، بيروت: دار الكتاب العربي ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م، ص٥-٦).

(٢٣٣) أحسن التقاسيم، ص٧٨. والفرسخ: ثلاثة أميال. وهو لفظ فارسي معرب. (ابن منظور، لسان العرب، ج٦، ص٣٣٨١).

(٢٣٤) أحسن التقاسيم، ص٧٩.

(٢٣٥) المصدر نفسه، ص٧٨.

(٢٣٦) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٢٣٧) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

فقال(٢٣٨): "بها... قياسير وحوانيت حسنة البناء بالحجر وخشب الساج". فضلاً عن ذلك فقد أكّد المقدسي - وهو يتحدث عن منى - توافر الكثير من الآبار والمصانع المعدة لحفظ المياه فيها(٢٣٩).

وكانت منى آنذاك - ووفق ما رأى المقدسي - تقسّم خلال موسم الحج بين أهل الأمصار الإسلامية، فقال مبيّناً ذلك(٢٤٠): "وقلّ بلد مذكور في الإسلام إلا ولأهله به مضرب". وهو يشير بذلك إلى وجود منازل معمورة وقائمة في منى، يقطن فيها حجاج كل بلد مستقلين عن غيرهم خلال أيام الحج(٢٤١).

وحيث تحتاج هذه المنشآت الموجودة في منى للحفظ والصيانة، فقد أكّد المقدسي وجود فئات من الناس تُقيم بصفة دائمة فيها، بعد أن أُوكل لهم حفظها بعد انتهاء الموسم، فقال موضحاً هذا الأمر(٢٤٢): "تعمر أيام الموسم وتخلو بقية السنة إلا ممن يحفظها". وبيّن أن عدد الذين عُهد إليهم بحفظها يتراوح ما بين العشرين إلى الثلاثين رجلاً(٢٤٣).

ثانياً: مزدلفة

رغم أن المقدسي تحدث عن مزدلفة بشكل مختصر إلا أنه أمدنا بمعلومات طيبة عنها، فحدد لنا أنها تبعد عن منى فرسخاً(٢٤٤). كما ذكر ما فيها من منشآت لخدمة الحجاج، ومنها مصلى أشار إلى

---

(٢٣٨) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٢٣٩) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٢٤٠) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٢٤١) قال الاصطخري وهو يتحدث عن منى: "وبها أبنية كثيرة لأهل كل بلد من بلدان الإسلام". (مسالك الممالك، ص١٦). وأشار إلى ذلك أيضاً ابن حوقل بقوله: "وبمنى أبنية كثيرة كالقصور، لأهل كل بلد من بلدان الإسلام". (صورة الأرض، ص٣٦).

(٢٤٢) أحسن التقاسيم، ص٧٨.

(٢٤٣) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٢٤٤) المصدر نفسه، ص٧٩.

وجود منارة فيه فقط(٢٤٥)، دون أن يبيّن لنا نوعية عمارته ووصفها أو أطواله ومسافاته(٢٤٦). إضافة إلى ذلك فقد أشار المقدسي إلى وجود سقاية للماء في مزدلفة(٢٤٧)، فضلاً عن عدد من البرك القريبة من جبل ثبير(٢٤٨).

ولم يفت المقدسي - وهو يتحدث عن مزدلفة - أن يذكر بعض الأسماء الأخرى التي كانت تطلق عليها، ومنها جمع والمشعر الحرام(٢٤٩).

وكان مما أشار إليه المقدسي بطن مُحَسِّر، فبيّن أنه على حدود المزدلفة فيما بينها وبين منى، دون أن يتعرض لبعض الجوانب الشرعية المتعلقة بهذا المكان، كعادته عندما يجد فرصة للحديث عن جوانب فقهية أو تشريعية، فقال(٢٥٠): "بطن مُحَسِّر: وادٍ بين منى والمزدلفة، وهو تخم(٢٥١) المزدلفة".

ثالثاً: عرفة

توسع المقدسي قليلاً في حديثه عن عرفة مقارنة بمعلوماته عن المشاعر المقدسة الأخرى، فأتحفنا خلال ذلك بمعلومات جديدة، حيث قال في بداية حديثه عنها(٢٥٢): "عرفة: قرية فيها مزارع وخضر ومباطخ(٢٥٣)، وبها دور حسنة لأهل مكة ينزلونها يوم عرفة"،

---

(٢٤٥) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٢٤٦) لمعرفة بعض المعلومات عن مسجد المزدلفة، انظر؛ الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص١٨٧؛ الحربي، المناسك، ص٥٠٨؛ ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج٧، ص٢٨٧.

(٢٤٧) أحسن التقاسيم، ص٧٩.

(٢٤٨) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٢٤٩) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٢٥٠) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٢٥١) قال ابن منظور: التخم، منتهى كل قرية أو أرض. وتخومها، حدودها. والتخوم أيضاً مفصل ما بين الكورتين والقريتين. (لسان العرب، ج١، ص٤٢٢-٤٢٣).

(٢٥٢) أحسن التقاسيم، ص٧٩.

(٢٥٣) كما يتضح فإن المقدسي لا يقصد حائط بني عامر؛ لأن هذا المكان على حد عرفات من ناحية الشرق.

وبهذا فإن المقدسي قد أفادنا بوجود الاستقرار السكاني في عرفة عندما نعتها بأنها قرية، فيها بعض الدور السكنية، وتنتشر فيها أنواع من المزروعات، وهذا كله - كما هو معروف - من علامات التحضر. ويبدو أن هذا الاستقرار الذي ألمح إليه المقدسي، والدور التي ذكرها في عرفة كانت قريبة النشأة من مجيء المقدسي إلى مكة، ويؤيد ذلك ما ذكر ابن عبد ربه الأندلسي (ت ٣٢٨ هـ/ ٩٣٩م) حين أكّد عدم وجود ساكن أو حتى بناء فيها(٢٥٤).

ثم تحدث المقدسي عن الموقف وجبل الرحمة، فقال(٢٥٥): "والموقف منها على صيحة عند جبل متلاط، وثم ّسقايات وحياض وقناة تخر وعَلَم قد بُني يقف خلفه الإمام للدعاء(٢٥٦)، والناس حوله على جبال بقربه لاطية". وقد حدد من خلال ذلك موقع الموقف، وبيّن أن الحجاج يقفون حول هذا الجبل، الذي وضع في أعلاه علم، يقف خلفه الإمام حينذاك للدعاء في يوم عرفة. كما أكّد المقدسي وجود بعض المصادر المائية في عرفة آنذاك، وهي مجموعة من السقايات والحياض المعدة لحفظ المياه للحجاج، فضلاً عن قناة تجري فيها المياه لخدمتهم، وكأنه يشير بذلك إلى استمرار عمل القناة التي وضعتها زبيدة في أواخر القرن الثاني الهجري في عرفة.

كما تناول المقدسي بالحديث مسجد عرفة، والذي أطلق عليه لفظ مصلى، فقال عن موقعه(٢٥٧): "والمصلى على حافة وادي عُرنة

---

(٢٥٤) العقد الفريد، ج٧، ص٢٨٧.

(٢٥٥) أحسن التقاسيم، ص٧٩.

(٢٥٦) قال ناصر خسرو بعد أن ذكر صلاة الإمام في مسجد نمرة وصفتها: "ثم يركب الإمام جملاً، ويتجه إلى الجهة الشرقية من عرفات؛ حيث يرقى جبلاً صغيراً، ويسمى ذلك الجبل جبل الرحمة، ويقف الإمام على الجبل ممتطياً ناقته متجها إلى القبلة في الجهة الغربية، ويظل يدعو الله، ويسأله الرحمة والغفران إلى غروب الشمس". (سفر نامه، ص١٥٩).

(٢٥٧) أحسن التقاسيم، ص٧٩.

على تخوم عرفة". كما أشار إلى وجود منبر في مسجد عرفة بُني من مادة الآجر، وكذلك حوض لحفظ الماء بالقرب من المسجد وصفه بالكبر، فقال(٢٥٨): "وفي المصلى منبر من الآجر، وخلفه حوض كبير". ولم يصف لنا هذا المسجد وما يحتويه من مبان ومنشآت. ويبدو من خلال إهمال المقدسي لهذا الجانب أن المسجد كان آنذاك قد تعرض للخراب وتهدمت مبانيه، بعد أن كانت قائمة في أواخر القرن الثالث الهجري(٢٥٩). وهذا ما أكده بالفعل ناصر خسرو عندما ذكر خراب هذا المسجد خلال حجته التي أداها سنة ٤٤٢هـ(٢٦٠).

وأشار المقدسي وهو يتحدث عن عرفة إلى وجود أعلام وضعت لمعرفة حدودها، صبغت باللون الأبيض(٢٦١). كما أكد أن عرفة خارج حدود الحرم عندما قال وهو يتحدث عن المسجد(٢٦٢): "وقبله بميلين المأزمين(٢٦٣) هي حد الحرم". وبهذا فقد وضّح لنا المقدسي أيضاً أن عرفة تبعد عن حدود الحرم بميلين تقريباً.

---

(٢٥٨) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٢٥٩) قال عنه الحربي موضحاً ذلك: "وذرع طول مسجد عرفات من مقدمه إلى مؤخره مئة وثلاثة وستون ذراعاً، ومن جانبه الأيمن إلى جانبه الأيسر مئتان وثلاثة عشر ذراعاً، وله من الأبواب تسعة، منها في القبلة باب عليه طاق، وفي الجانب الأيمن أربعة وفي الأيسر أربعة. ومن مؤخر المسجد مكان مربع طوله في السماء سبعة أذرع، وسعة أعلاه سبع أذرع في ست أذرع، وربما أذّن عليه". المناسك، ص٥٠٩-٥١٠. كما أسهب الأزرقي في وصف مسجد عرفة وذكر طريقة بنائه وأبوابه وكل ما يتعلق به. انظر (أخبار مكة، ج٢، ص١٨٨-١٨٩). وقد أتينا بوصف الحربي هنا؛ لأنه الأقرب إلى عصر المقدسي.

(٢٦٠) سفر نامه، ص١٥٩.

(٢٦١) أحسن التقاسيم، ص٧٩.

(٢٦٢) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٢٦٣) قال ياقوت: الأزم الضيق، ومنه سمي هذا الموضع، وهو موضع بمكة بين المشعر الحرام وعرفة، وهو شعب بين جبلين يفضي آخره إلى بطن عُرَنة. (معجم البلدان، ج٥، ص٤٠).

حدود الحرم المكي

ذكر المقدسي أن الحرم المكي قد أُحيط بأعلام طليت باللون الأبيض توضح حدّ الحرم من الحل، فقال(٢٦٤): "ويحدق بالحرم أعلام بيض". كما تناول بالحديث أبعاد أرض الحرم عن الكعبة، متخذاً - كغيره ممن اهتم بهذا الجانب آنذاك - من مداخل مكة معالم واتجاهات لتحديد هذه المسافات، فقال مبيّناً ذلك(٢٦٥): "وهو من طريق الغرب التنعيم ثلاثة أميال، ومن طريق العراق تسعة أميال، ومن طريق اليمن سبعة أميال، ومن طريق الطائف أحد عشر ميلاً، ومن طريق الجادة عشرة أميال". ولم يبيّن لنا المقدسي ما إذا كان أخذ هذه القياسات - التي تتشابه إلى حدٍّ كبير مع بعض ما جاء في عدد من المصادر(٢٦٦) - بنفسه، أم أنه - وهذا ما أميل إليه - استقى معلوماته ممن سبقوه في هذا المجال، كعادته في تحديد المسافات والأطوال، لا سيما في الكعبة والمسجد الحرام - كما رأينا - والتي اعتمد فيها على ابن خرداذبة، مثلاً.

معلومات أخرى

أَثَّرَت قدسية المكان وملاءمة الزمان على المقدسي؛ فتناول في حديثه عن مكة جوانب تشريعية مختلفة تتعلق بالمناسك، وأخرى ذات صبغة دينية أيضاً ترتبط ببعض العبادات السائدة في مكة. وكان مما

---

(٢٦٤) أحسن التقاسيم، ص٧٩.

(٢٦٥) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٢٦٦) أشارت مجموعة من المصادر إلى حدود الحرم، وتفاوتت كثيراً في هذا الجانب، انظر على سبيل المثال: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص١٣١-١٣٢؛ ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص٢١-٢٢؛ ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص١٣٢؛ الاصطخري، مسالك الممالك، ص١٧-١٨؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ص٣٧؛ البكري، المسالك والممالك، ج١، ص٤٠٣. وللاطلاع على المزيد من المعلومات عن حدود الحرم المكي وأعلامه وتاريخها وما قيل حولها، انظر: عبدالملك بن عبدالله بن دهيش، الحرم المكي الشريف والأعلام المحيطة به: دراسة تاريخية ميدانية، مكة المكرمة، (د.ت).

تحدث عنه المقدسي تحديد مواقيت الحج للقادمين من الآفاق الإسلامية، فأورد حديثاً رُوي عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ حول مواقيت أهل الأمصار. كما بيّن في هذا الموضع حكم من جاوز المواقيت دون إحرام(٢٦٧).

من جانب آخر ذكر المقدسي أن أهل مكة يحرمون منها(٢٦٨). كما أشار إلى موضعين خارج حدود الحرم يخرج إليهما الناس من مكة للإحرام، وهما الجعرانة والتنعيم، فأتحفنا ببعض المعلومات عنهما، حيث يقول عن الجعرانة(٢٦٩): "الجعرانة: على مرحلة من مكة يخرج الناس إليها في الإحرام بالعمرة". كما بيّن أن التنعيم موضع على الطريق المؤدي إلى المدينة، وذكر أن فيه مجموعة من المساجد، بالإضافة للمسجد المعروف فيه، وهو مسجد عائشة، كما أكّد وجود بعض السقايات في هذا المكان، وأشار إلى كثرة إحرام المكيين منه للعمرة(٢٧٠).

وأثبت المقدسي معرفته التامة بأحكام المناسك حينما ألقى الضوء على فرائض الحج وواجباته وسننه، فقال مختصراً هذا الموضوع، ومبيناً معرفته التامة به واطلاعه على اختلافات العلماء في هذا الجانب(٢٧١): "فهذه مشاهد المناسك وجميع ما يؤدى فيها ثلاث فرائض، وست واجبات، وخمس سنن. أما الفرائض: فالإحرام، والوقوف بعرفة، والطواف للزيارة. والواجبات: الإحرام من الوقت، والسعي بين الصفا والمروة، والإفاضة من عرفات بعد المغرب(٢٧٢).

---

(٢٦٧) أحسن التقاسيم، ص٨٠.

(٢٦٨) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٢٦٩) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٢٧٠) المصدر نفسه، ص٧٩.

(٢٧١) المصدر نفسه، ص٨٠.

(٢٧٢) اقتصر المقدسي - كما يلاحظ - على ذكر ثلاث فقط من الواجبات رغم أنه أشار في البداية إلى أن عددها ست.

والسنن: طواف القدوم، والرمل في ثلاثة أشواط منه، والعدو في السعي بين العلمين، والإفاضة من المزدلفة قبل الطلوع، والإقامة بمنى أيام منى. وقال بعضهم: السعي فرض، وقال بعض: طواف القدوم واجب، وطواف الصدر سنّة".

وقد أشار المقدسي إلى كيفية أداء المكيين لصلاة التراويح في المسجد الحرام، فقال(٢٧٣): "ويرتبون خمسة أئمة في التراويح يصلون ترويحة، ويطوفون أسبوعاً، والمؤذنون يكبرون ويهللون ثم يضرب الفرقاعيات(٢٧٤) كما تضرب عند الصلوات، فيتقدم الإمام الآخر، يصلون العشاء إذا مضى من الليل الثلث، ويفرغون إذا بقي الثلث، ثم ينادى بالسحور على أبي قبيس". والمقدسي بقوله هذا يؤكد لنا استمرار العمل بهذه الطريقة في مكة - والتي استحدثت خلال القرن الأول الهجري وبأمر من واليها آنذاك خالد بن عبدالله القسري(٢٧٥) - خلال

---

(٢٧٣) المصدر السابق، ص٩٥.

(٢٧٤) فُرقع الشيء: سُمع له دوي. والفرقعة: الصوت بين شيئين متضاربين. (مجموعة من العلماء، المعجم الوسيط. ط٢، بيروت: دار إحياء التراث العربي، (د. ت)، ج٢، ص٦٨٦). وقال ابن جبير في تعريفها: "عود مخروط قد رُبط في رأسه مرس من الأديم المفتول طويل في طرفه عذبة صغيرة ينفضها بيده في الهواء نفضاً؛ فتأتي بصوت عال يسمع من داخل الحرم وخارجه للإيذان بوصول الخطيب، ولا يزال في نفضها إلىً أن يقرب من المنبر، ويسمونها الفرقعة". (الرحلة، ص٧٢-٧٣). وقد أنكر عبدالرحمن بن الجوزي ذلك عندما حج ورأى ذلك سنة ٥٥٣هـ، فقال: "ومن عجائب ما رأيت أنهم كانوا يمشون بين يدي الخطيب يوم الجمعة بمقارع تضرب على غفلة تزعج المكان والناس؛ فأنكرت هذا، فقيل: هذا شعارهم. فقلت: بئس الشعار؛ هذا مكان يجب احترامه عن رفع الأصوات، والأذان يكفي". (ابن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٥٢٠).

(٢٧٥) يقول الأزرقي موضحاً ذلك: "فلما ولي خالد بن عبدالله القسري مكة لعبدالملك بن مروان، وحضر شهر رمضان، أمر خالد القراء أن يتقدموا فيصلوا خلف المقام، وأدار الصفوف حول الكعبة، وذلك أن الناس ضاق عليهم أعلى المسجد فأدارهم حول الكعبة فقيل له: تقطع الطواف لغير المكتوبة قال: فأنا آمرهم يطوفون بين كل ترويحتين سبعاً، فأمرهم ففصلوا بين كل ترويحتين بطواف سبع، فقيل له: فإنه يكون في مؤخر الكعبة وجوانبها من لا يعلم بانقضاء طواف الطائف من مصل وغيره، فيتهيئ للصلاة، فأمر عبيد الكعبة أن يكبروا حول الكعبة يقولون: الحمد لله =

النصف الثاني من القرن الرابع الهجري. كما وضح المقدسي من خلال حديثه المذكور آنفا عدد الأئمة الذين يؤدون صلاة التراويح في المسجد الحرام آنذاك، وكيف يقضي الناس عبادتهم في ليالي رمضان، وطريقة التنبيه لقدوم الإمام وإقامة الصلوات، فضلاً عن النداء للسحور.

من جانب آخر أشاد المقدسي بقضاء شهر رمضان في مكة، وعدّ ذلك من الأشياء المستحسنة، فقال(٢٧٦): "واعلم أن خمساً في خمسة مواضع من الإسلام حسن: رمضان في مكة...".

وفي حديثه عن منى أورد المقدسي الخلافات بين بعض العلماء في مسألة جواز إقامة الجمعة فيها من عدمه، وهل هي ومكة مصر واحد أم لا؟ وقد زودنا خلال تناول هذه القضية ببعض آراء العلماء في هذا الموضوع، مع ذكر شيء من أدلتهم واحتجاجاتهم(٢٧٧).

وعندما تكلم عن وادي عُرنة - الواقع على تخوم عرفة - ذكر حكماً فقهياً، بيّن من خلاله أنه لا يجوز الوقوف بهذا الوادي، ومن خرج إليه قبل غياب الشمس وجب عليه دم(٢٧٨).

وبيّن المقدسي أن ترديد الصوت في الحلق، وتكراره كانت طريقة الأذان المتبعة بمكة، فقال(٢٧٩): "والأذان بتهامة ومكة يرجَّع"(٢٨٠).

= والله أكبر، فإذا بلغوا الركن الأسود في الطواف السادس سكتوا بين التكبيرتين سكتة حتى يتهيئ الناس ممن في الحجر ومن في جوانب المسجد من مصل وغيره؛ فيعرفون ذلك بانقطاع التكبير، ويصلي، ويخفف المصلي صلاته، ثم يعودون إلى التكبير حتى يفرغوا من السبع، ويقوم مسمع فينادي: الصلاة رحمكم الله". (أخبار مكة، ج٢، ص٦٦-٦٧).

(٢٧٦) أحسن التقاسيم، ص١٥٧.

(٢٧٧) المصدر نفسه، ص٧٨.

(٢٧٨) المصدر نفسه، ص٧٩.

(٢٧٩) المصدر نفسه، ص٩١.

(٢٨٠) قال ابن منظور: رجَّع الرجل وترجَّع: ردد صوته في قراءة، أو أذان، أو غناء، أو زمر أو غير ذلك مما يترنم به. والترجيع في الأذان: أن يكرر قوله: أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله. وترجيع الصوت: ترديده في الحلق كقراءة أصحاب الألحان. والترجيع ترديد القراءة، ومنه ترجيع الأذان. (لسان العرب، ج٣، ص١٥٩١).

الجدير بالذكر أن المقدسي أشار إلى بعض الأماكن في مكة وأسماها بالمشاهد(٢٨١)، ويبدو أنه يقصد بذلك المواطن التي ذكرت المصادر استحباب الصلاة والدعاء فيها.

وقد اكتفى المقدسي في هذا الجانب بذكر عدد محدود مما أشارت إليه المصادر، وفي الوقت نفسه أضاف مواقع أخرى لا نجدها في المصنفات المتاحة التي تحدثت عن ذلك، فقال(٢٨٢): "المشاهد بمكة مولد النبي ﷺ في المحامليين، ودار الأربعين(٢٨٣) بالبزّازين، ودار خديجة خلف العطارين، وغار ثور على فرسخ أسفل مكة، وحِراء من نحو منى، وغار آخر خلف أبي قبيس".

كما ذكر المقدسي أماكن قبور بعض من دفن في مكة، فقال(٢٨٤): "وبالحرم قبر ميمونة(٢٨٥) على طريق جدة، وفي الثنية(٢٨٦) قبر

---

(٢٨١) قال ابن منظور، المشهد: المجمع من الناس، والمشهد محضر الناس. ومشاهد مكة: المواطن التي يجتمعون بها. (لسان العرب، ج٤، ص٢٣٤٩-٢٣٥٠).

(٢٨٢) أحسن التقاسيم، ص٩٦. وعن الأماكن التي تستحب فيها الصلاة والدعاء في مكة، انظر؛ الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص١٩٩-٢٠٤؛ ابن جبير، الرحلة، ص٩١-٩٣؛ ابن الجوزي، مثير العزم الساكن إلى أشرف الأماكن، تحقيق: مرزوق علي إبراهيم، ط١، الرياض: دار الراية ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، ج٢، ص٨٣-٨٦؛ محب الدين الطبري، القرى لقاصد أم القرى. تحقيق، مصطفى السقا. ط٣، القاهرة: دار الفكر ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص٦٦٤-٦٦٥.

(٢٨٣) ويقصد بذلك - كما يتضح - دار الأرقم بن أبي الأرقم. وكان المصطفى ﷺ يجتمع فيها في بداية الدعوة بأصحابه رضوان الله عليهم، ولم يخرجوا منها لإظهار الدعوة حتى وصل عددهم إلى أربعين رجلاً. (ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة. بيروت: دار الفكر، (د.ت)، ج١، ص٧٤). ولم أجد هذا الاسم لها عند الأزرقي أو الفاكهي أو في الكتب الأخرى التي ذكرت الأماكن التي يستحب فيها الدعاء بمكة.

(٢٨٤) أحسن التقاسيم، ص٩٦.

(٢٨٥) هي ميمونة بنت الحارث الهلالية رضي الله عنها، زوج النبي ﷺ. توفيت بسرف سنة ثلاث وستين، وقيل: ست وستين للهجرة، وقيل غير ذلك. (الفاسي، العقد الثمين، ج٨، ص٣١٩-٣٢٠).

(٢٨٦) يقصد ثنية كداء، وفيها مقبرة المعلاة.

الفضيل(٢٨٧) وسفيان بن عيينة(٢٨٨) ووهيب بن الورد"(٢٨٩).

الجدير بالذكر أن المقدسي قد ختم كلامه عن إقليم الجزيرة العربية بالطرق ومسافاتها. سواء كانت الطرق الداخلية في هذا الإقليم، أو ما تربطه بالعالم الخارجي. وفي خضم ذلك تحدث عن الطرق التي تربط مكة بالمدن والقرى التابعة لها، كما تكلم أيضاً عمَّا يصل إليها من طرق خارج حدودها الإدارية، ودعم ذلك بالمسافات بين كل موقع وآخر(٢٩٠).

---

(٢٨٧) هو الفضيل بن عياض، أحد الأئمة الزهاد، والعلماء المبرزين، ولد بسَمَرْقَند، ونشأ بأَبِيْوَرْد ثم الكوفة، ورحل في طلب العلم، فروى عن عدد من العلماء المبرزين، ثم استقَر في مكة مجاوراً حتى مات. ويُعد من المحدثين الثقات، والفقهاء المجتهدين. توفي سنة ١٨٧هـ/ ٨٠٢م. (ابن حبان: الثقات، ط١، الهند، حيدر آباد: دائرة المعارف العثمانية ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.ج٧، ص٣١٥؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٨، ص٤٢١-٤٤٢).

(٢٨٨) هو سفيان بن عيينة الهلالي، أحد الأئمة الحفاظ المبرزين، وشيخ الإسلام في عصره، ولد بالكوفة سنة ١٠٧هـ/ ٧٢٥م، ثم انتقل إلى مكة، فاستقر فيها. وتتلمذ في مكة على الزهري وعمرو بن دينار وغيرهما، كما رحل في طلب العلم إلى بعض الأمصار. وقد عني بتتبع العلوم الشرعية دراسة وتصنيفاً، وهو ثقة في روايته، وشُهر أيضاً بالزهد والورع والتقوى، توفي بمكة سنة ١٩٨هـ/ ٨١٣م. (ابن سعد: الطبقات الكبرى. بيروت: دار صادر، (د. ت)، ج٥، ص٤٩٧-٤٩٨؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٨، ص٤٥٤ - ٤٧٥).

(٢٨٩) من عباد المكيين وزهادهم. أدرك جماعة من التابعين، وروى عن عطاء بن أبي رباح وأبان بن أبي عياش وغيرهما. توفي سنة ١٥٣هـ/ ٧٧٠م. (الفاسي، العقد الثمين، ج٧، ص٤١٧-٤٢٢).

(٢٩٠) أحسن التقاسيم، ص٩٩-١٠٢.

الخاتمة

إن التعايش مع المقدسي في رحلته إلى مكة قد كشف لنا الكثير من الحقائق وأفضى بنا إلى عدد من النتائج، سواء من حيث أصالة معلومات الكتاب وقيمتها العلمية والتاريخية، أو من حيث منهجه ومصادر معلوماته، ومن أبرز ما توصلنا إليه الآتي:

- الاهتداء إلى مكانة المقدسي وعلو كعبه بين الجغرافيين والرحالة، وقيمة كتاب أحسن التقاسيم العلمية وأهميته بين مصنفاتهم.
- أن كتابات المقدسي بما حفلت به من المعلومات قد يسرت الوصول للكثير من الحقائق التاريخية، والاطلاع على العديد من الجوانب الحضارية، التي أتاحت تغطية مساحات من التاريخ المكي الذي غفل عنه المؤرخون، ولا سيما في القرن الرابع الهجري.
- بيّن المقدسي من خلال كتاباته - وبطريقة غير مباشرة - المكانة السياسية التي بلغتها مكة خلال النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، وتوسع سلطتها الإدارية، فضلاً عن التطور الحضاري الذي شهدته أوجه النشاط المختلفة فيها آنذاك.
- أوضح المقدسي مدى التصاق أهل مكة وحكامها وارتباطهم سياسياً وحضارياً في مصر وحكومتها آنذاك. وبيّن أن الجانب الاقتصادي كان الدافع الأول، والمحرك الأساس لهذا الارتباط الوشيج.
- أفاد المقدسي عبر إشارات وإيماءات مختصرة بوجود نفوذ محدود في مكة للدولة الزيادية الحاكمة في اليمن آنذاك، وكذلك ملك غرجستان المعروف بالشار.
- كما أطلعنا المقدسي أيضاً على الكثير من المعلومات التي انفرد بها عن غيره، ومنها على سبيل المثال: وجود كسوة على مقام إبراهيم، ومخالفة رسم موطئ القدمين فيه، ونقش العمال الذين عملوا في توسعة الخليفة المنصور أسماءهم في جنبات المسجد، وتأجير

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الثالث رجب ١٤٣٦هـ، السنة الحادية والأربعون

المكيين الدور للحجاج والمعتمرين. إضافة لبعض المعلومات عن منى، مثل: تقسيمها أيام الحج بين أهل الأمصار، ووجود حراس يقيمون فيها أيام السنة لحفظها، ووجود شوارع وبنايات وحوانيت فيها. وكذلك وجود مساكن في عرفة، وغير ذلك من المعلومات الجديدة التي يجدها المتصفح لهذه الدراسة.

- أوقفنا المقدسي على التحرك التجاري في مكة، وأوجه هذا النشاط ومجالاته، إضافة لمدى تفاعل المكيين معه.
- أتحفنا بمعرفة عدد من العملات والنقود المتداولة في مكة، فضلاً عن المكاييل والموازين المستعملة في التعاملات التجارية فيها.
- زودنا المقدسي بالكثير من المعلومات الحضارية؛ سواء منها ما يتعلق بالنواحي العمرانية في الكعبة والمسجد الحرام، أو في مكة والمشاعر المقدسة. وكذلك ما يرتبط بالحياة الاجتماعية، مثل: معيشة السكان أو بعض العادات والتقاليد أو الأمراض وغيرها. إضافة لفوائد متنوعة عن الحياة الفكرية والعلمية.
- لم يتطرق المقدسي لأي معلومات سياسية، سواء ما يتعلق بالأشراف - الذين لم يشر لهم إطلاقاً - أو العبيديين أو غيرهم. ومع ذلك فقد استطعنا استنتاج بعض الأمور السياسية من خلال طرقه لبعض الموضوعات الحضارية.
- اتضح اعتماد المقدسي في ما ذكر من قياسات في الكعبة أو المسجد الحرام أو غيرهما كلياً على كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة، فنقل ما فيه بحذافيره دون تمحيص أو تأكد رغم أنه قدم إلى مكة أكثر من مرة، كما جاور فيها أيضاً كما أشرنا.
- لم يسهب المقدسي في وصف الكثير من المواقع في مكة، ولا سيما في الكعبة والمسجد الحرام كما فعل غيره ممن سبقه أو أتى بعده من المؤرخين والجغرافيين، والرحالة توسعوا في الحديث عن

وصف الكعبة والمسجد الحرام والمشاعر المقدسة، وربما كان سبب ذلك الالتزام بالمنهج الذي رسمه من حيث عدم تكرار ما ذكر غيره. ورغم ذلك فقد جاءت معلومات المقدسي رغم اختصارها مملوءة بالفوائد.

- أن المقدسي لم يستفد في بعض الجوانب التي طرقها من كتابات المؤرخين المكيين الذين سبقوه كالأزرقي والفاكهي، رغم أهميتها في بعض الجوانب.